

## الفصل الثالث

### الصنعة والتصنيع

لله ما راح في جوانحه من لؤلؤ لا ينام عن طلبه  
يخرج ضوء السراج من لهبه

( بشار )

١

#### الشعر في القرنين الثاني والثالث وعلاقاته الجديدة

لا نكاد نمضى في القرن الثاني للهجرة حتى يقوم على صناعة الشعر أمشاج من العرب والموالى الذين كانوا يعيشون في المراكز العقلية الكبرى وخاصة البصرة والكوفة ، فكان طبيعياً أن تتطور صورته وأن تختلف عن صورة الشعر القديم الذي كان يستمد من علاقات البادية وصلاتها الحسية والمعنوية ، لسبب بسيط ، وهو أن مَنْ ينظمونه يَحْيُونَ في المدن ، وتؤثر فيهم علاقات وصلات جديدة ، بعضها سياسي ، وبعضها حضري واجتماعي ، وبعضها عقلي وثقافي ، ونحن نسوق طائفة من هذه العلاقات والصلات الجديدة .

#### الدعوة العباسية

أخذت هذه الدعوة في الظهور منذ أوصى أبو هاشم بن محمد بن الخنفية بالإمامة من بعده إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، فتحولت إليه الفرقة المعروفة في تاريخ الشيعة باسم الكيسانية التي كانت تدين بإمامة ابن الخنفية ، كما تحولت إليه فرقة أبي هاشم نفسه المسماة بالهاشمية ، وأخذ على رأس المائة يدير من موطنه في الحميمية دعوة سرية للقضاء على بني أمية ، وأرسل دعواته

في الآفاق ، وخاصة في الكوفة وخراسان ، وما زال يوالى الدعوة ، حتى توفي ، فخلفه وصيه وابنه إبراهيم ، ولما طلبه الأمويون وأيقن بالهلاك أوصى لأخيه أبي العباس السفاح . وبعد مغامرات ومخاطرات جمّة استطاعت الجيوش الخراسانية بقيادة قحطبة وابنه الحسن القضاء على الدولة الأموية ، واتخذ السفاح الهاشمية بالقرب من الكوفة حاضرة له . ولم تطل مدته فخلفه أبو جعفر المنصور ، ورُعمدُ المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، وقد ثار عليه عمه عبد الله ، ففضى على ثورته أبر مسلم الخراساني ، ولم يلبث هو أن قضى على أبي مسلم إذ استلرحه إلى «المدائن» وقتله . وفي هذه الأثناء كان العلويون يرون العباسيين اغتصبوا دولتهم ، إذ كانوا يظنون أن الخراسانيين يعملون من أجلهم وأن العباسيين صرفوهم عنهم بنحبهم ومكرهم ، فثاروا أولاً في الحجاز بقيادة محمد بن عبد الله بن الحسن ثم ثاروا في البصرة بقيادة أخيه إبراهيم ، واستطاع المنصور أن يقضى على الثورتين ، جميعاً . ولما تم له الظفر بأعدائه فكر في أن يبتعد عن الكوفة مستقر الشيعة والعلويين ، فاختار قرية صغيرة على الضفة اليسرى من دجلة تسمى «بغداد» ، لتكون حاضرة دولته وأقام فيها قصوراً لنفسه وحاشيته ، كما أقام فيها دواوين دولته ، واجتذب إليها التجار والعلماء . وبنى لجيشه معسكراً على الضفة اليمنى ، وأطلق عليها اسم دار السلام ، ولكن اسمها القديم هو الذي ذاع وشاع .

وعلى هذا النحو استقر العباسيون في بغداد ، ولم تقم الشيعة قائمة بعد المنصور . وكذلك الشأن في الخوارج فإن حروب الأمويين طحنهم ، ولم نعد نسمع بثوراتهم في العراق إلا مشاغبات ضئيلة ، سرعان ما تخدم . وانتقلوا بنشاطهم إلى بلاد المغرب حيث لا تزال لهم بقايا هناك إلى اليوم . وقد يكون السبب في ذلك أن العرب خوارج وغير خوارج في هذا العصر دحرتهم الجيوش الخراسانية فعادت فلوهم إلى الصحراء ، ولم تعد الدولة العباسية تشهد في العراق معارضة سياسية على نحو ما كان الأمر في عصر بني أمية . وليس معنى ذلك أن الشيعة عدموا من يتشيع لهم من الشعراء . فقد كان هناك من يتشيعون لهم ، غير أن كثيرين من شيعتهم لم يجدوا بأساً في أن ينضووا تحت لواء العباسيين ، فقد رجع الحق بهم إلى أهله

وورثته الشرعيين ، وخير من يمثل ذلك السيد الحِمَيْرِي ، فقد كان من غلاة الشيعة ، وكان يجهر بتأييد العباسيين ، ومدح السفاح حين دخل الكوفة فقال (١) :

دونكموها يا بني هاشمٍ      فجددوا من عهدِها الدَّارِيسَا  
دونكموها فالبسوا تاجها      لا تعدموا منكم له لابسَا

وظلَّ يَحْطِبُ في جبل الخلفاء العباسيين ، وظلوا يقربونه ويُجزلون له في العطاء وهو لا ينسى علياً وفضائله مؤمناً برجعة إمامه محمد بن الحنفية ، ومن مستحسن شعره في آل الرسول صلوات الله عليه (٢) :

أني حسنتُ والحسينَ الرسولُ      وقد برزا ضحوةً يلعبانِ  
وضمتهما ثم فسداهما      وكانا لديه بذلك المكانِ  
وطأطأ تحتهما عاتقِيه      فنعم المطيئةُ والراكبانِ

ونلتني في القرن الثاني بكثير من هؤلاء المشيعين الذين يسرفون في مديح العباسيين مثل منصور النحري ، وكان يكثر من رثاء العاويين وبكائهم ، ومن جيد ما قاله فيهم (٣) :

آلُ الرسولِ ومن يحبُّهمُ      يتطامنون مخافة القتلِ  
أمنِ النصراني واليهودِ وهم      من أمة التوحيد في أزلِ (٤)

ولعل أهم شاعر أعلن عقيدته الشيعية وعاش يناضل في سبيلها هو دِعْبِل الخُرَاعِي ، وكان يأتي بالتمري في بكاء آل البيت ورثائهم ، وامتاز بأنه كان يضيف إلى ذلك هجاء لاذعاً في العباسيين ، وكأنه نظر إلى بيتي التمري السابقين حين قال (٥) :

أرى أمية معذورين إن قتلوا      ولا أرى لبني العباس من عُدُرٍ  
قتلٌ وأسْرٌ وتحريقٌ ومنهبةٌ      فعل الغزاة بأرض الروم والخزَرِ

(١) نفس المصدر ص ٢٤٧ .

(٢) أزل : شدة وضيق .

(٣) أغاني (سامي) ٤٤/١٨ .

(٤) الأغاني (طبع دار الكتب) ٩/٢٤٠ .

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع

دار المعارف) ص ٣٥ .

وهو صاحب القصيدة الثائية المشهورة (١) :

مدارسُ آياتٍ خلّتْ من تلاوةٍ ومنزِلٌ وحيٍّ مُقنّفر العرصاتِ

ويقول ابن المعتز: إنها أشهر من الشمس

وكان هؤلاء الشعراء المتشيعون يعدون شذوذاً في تلك الحقب التي استقر فيها الأمر لبني العباس . ولعلمهم من أجل ذلك كانوا يداجونهم ويملحونهم حتى دعبل فإنه كان يكثر من مديح المأمون . وكان الشعراء عامة من حوله ومن قبله وبعده يُضفون عليهم مدائحهم ، ووقف كثيرون منهم يدافعون عن حقهم في الخلافة أمام العلويين ، وأنهم ورثتها الشرعيون بحكم ما نزل به الوحي الكريم في مثل قوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وما جاء في فريضة الميراث من تقديم العم على أبناء البنات ، ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه مروان بن أبي حفصّة في مثل قوله للمهدى :

يا بنَ الذي ورثَ النبيَّ محمداً      دون الأقارب من ذوى الأرحامِ  
الوحيُّ بين بني البنات وبينكم      قَطعَ الحِصامِ فلات حين خِصامِ  
فارضوا بما قسم الإله لكم به      ودعوا ورائة كلِّ أُصَيْدِ حامِ (٢)  
أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ      لبني البنات ورائةُ الأعمامِ

فالعباسيون لا العلويون هم أصحاب الحق في ولاية المسلمين ، وهو حق إلهي نص عليه القرآن الكريم . وكم من شاعر صور هذا الحق مُضفياً على العباسيين سيرة تقية عادلة ، فهم ظل الله في أرضه يحكمون الناس بتفويضه وإرادته .

#### الشعرية

خسر العرب بسقوط الدولة الأموية سيادتهم المطلقة التي كانت لهم في هذه الدولة ، إذ كان السلطان عربياً خالصاً . ولم يعد لهم ولا لجزيرتهم أى شأن مهم في السياسة ، فقد غلب الفرس على الدولة وأَسبجوا هم السادة وأصحاب النفوذ في

(١) معجم الأدباء لياقوت (طبع مصر) (٢) الأصيد : السيد . والحاى : من يحمى ذويه . ١٠٣/١١

البلاط العباسي . ومن المحقق أن الثورة العباسية لم تكن ثورة على العروبة من حيث هي عروبية ، وإنما كانت ثورة على الأسرة العربية الحاكمة التي لم تكن تعترف بمبدأ المساواة بين جميع المسلمين عرباً وغير عرب في الحقوق ، خارجةً بذلك على نظرية الإسلام التي تنصُّ على هدم العصبية القبلية والحسبية في مثل قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » و « إنما المؤمنون إخوة » وقول رسوله الكريم في خطبة حجة الوداع : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » وقوله : « المؤمنون إخوة تنكأوا دماءهم ويسعى بذمتهم أدناهم . وهم يدُّ على من سواهم » وكان عليٌّ وسابقوه من الخلفاء الراشدين يأخذون بهذه النظرية المثالية ، فلما انتهت مقاليد الحكم إلى بني أمية أخذ كثير من العرب يشعرون بالتفوق على الأعاجم الذين غلبوهم . وتملكهم الإحساس بالسيادة ، ففتنوا إلى غيرهم من الأمم نظيرة السيد إلى المسود . وتباور هذا الإحساس في الدولة وحكامها فلم يسووا بين الموالى المسلمين والعرب في الخراج وأرهقوهم بالضرائب ، سوى ما كان من عمر بن عبد العزيز، إلا أن قصر عهده لم ينح الفرصة كاملة ليوقف الموالى مع العرب على قدم المساواة . وسرعان ما أسدلت على سياسته الرشيدة ستور النسيان .

وأخذت هذه المشكلة مشككة المساواة بين الموالى المسلمين والعرب تتباور في سرعة . ومن غير شك كانت أهم سبب في اعتناقهم للتشيع ، فإن علياً حين اتخذ الكوفة حاضرة لخلافته كان يسوَّى بينهم وبين العرب في الختوق ، فلما قُتل وأخذ الأمويون يقسون عليهم في المعاملة كانوا يذكرون آياته ويبيكون عهده ويتمنون أن لورُدَّ الحكم إلى أحد أبنائه . لعله يعيد الأمر إلى نصابه . حتى إذا نظَّم العباسيون الدعوة لهم في خراسان انضموا إليها أفراداً وجماعات . وكوّنوا هذا الجيش الضخم الذي قضى قضاء ميرماً على الدولة الأموية وحيوشها العربية . ومعنى ذلك أن الثورة العباسية الأعجمية لم تكن ثورة على العروبة من حيث هي . وإنما كانت ثورة من أجل تطبيق نظرية الإسلام في المساواة بين العرب والموالى . غير أن الظروف أدَّتْ إلى أن يكون الفرس في جانب والعرب في جانب

وأن تعلقو كفة الفرس وأن يشعروا شعوراً قوياً بقوميّتهم ، إذ أصبح النفوذ في أغلبه لهم ، واستطاعت أسرة من أسرهم ، وهي أسرة البرامكة أن تحتفظ بالوزارة أعواماً طويلة من القرن الثاني ، وكان لها أثر عظيم في حياة الجماعة ، إذ عملت على إشاعة التقاليد الفارسية في الحكم ، وشجعت على نقل آداب قومهم إلى العربية . وخلفهم بنو سهل في عهد المأمون ، وهم فرس أيضاً . ويمضي العصر العباسي إلى خلافة المعتصم فارسياً حتى يُخْرَج هذا الخليفة أمر الجيش من أيدي الفرس ، فيجلب له جنوداً من الترك وبنو لهم سامراً ( سُرَّ مَنْ رَأَى ) . على أن العنصر العربي ظل ممثلاً بقوة في الخلفاء العباسيين وفي الدين الإسلامي واللغة العربية وفي بعض الأفراد من الوزراء والولاة والقواد أمثال يزيد بن حاتم المهلبى ومعن بن زائدة ويزيد بن مزيد وحُمَيْد الطوسى وأبى دُلْف العجلى . ولكن مما لا شك فيه أن الأعاجم كانوا متفوقين طوال العصر العباسي الأول ، فوقوا من العرب نفس الموقف الذي كانوا يقفونه منهم في عصر بنى أمية .

وهنا نجد مشكلة المساواة بين الموالى والعرب تثار في نطاق واسع تحت اسم الشعوبية ، وكان واضحاً أن الموالى يسبقون العرب في العلم ، إذ كان منهم أكثر العلماء لا في العصر العباسي وحده ، بل منذ العصر الأموي ، وطبعاً كانوا يسبقونهم في الزراعة والحرف المختلفة ، وهم اليوم يسبقونهم في السياسة ، وأخذت الدولة تفيد فائدة واسعة من النظم الساسانية القديمة كما أخذت تنظّم ترجمة الثقافات الأجنبية . وأصبحت كثرة الأدباء كتاباً وشعراء من الموالى وخاصة الفرس ، إذ كان ابن المقفع أكبر كتّاب عصره فارسياً ، وكذلك كان بشار بن بُرْد زعيم المجددين في الشعر . كل ذلك هيباً لفتح هذا الباب الكبير : باب الشعوبية ، وواضح من اسمها أنها تبحث في فضائل الشعوب وأبها يتقدم غيره من الأمم ، وقد تحولوا بها من المساواة التي كانوا يريدونها بينهم وبين العرب إلى إثبات أنهم فوقهم وأفضل منهم . وانبرى لذلك جماعة من علمائهم جعلوا همهم الحطّ من شأن العرب في جاهليّتهم بما كانوا فيه من البداوة والفظاظة ولبعدهم عن أسباب المدنية والحضارة ، ووضعوا كثيراً من الكتب في

مثالهم، يذكرون فيها مثالب القبائل قبيلة قبيلة، واشتهر بالكتابة في هذه المثالب أبو عبيدة وعلائن الشعوبى والهيثم بن عدى، وتعرضوا لفضائلهم يتقصونها على نحو ما تقص سهل بن هرون فضيلة الكرم في رسالته التي رواها الجاحظ في فاتحة بخلائه، ووضعوا عليهم كثيراً من القصص وأنطقوهم أشعاراً لم ينظموها، وتعرضوا لأدواتهم وأسلحتهم في القتال ولما كانوا يأخذون به أنفسهم في الخطابة من الاعتماد على العصبى والقسي. وردّ عليهم الجاحظ في البيان والتبيين<sup>(١)</sup> وابن قتيبة<sup>(٢)</sup> وغيرهما ردّاً مُفحماً. وكانت هذه الدعوة من غير شك سيئة لأنها تدعو إلى تفريق الجماعة الإسلامية وتثير الأحقاد والضغائن بين شعوبها. غير أن ثورة الفرس - فيما يظهر - كانت جامحة، وكان يمدّها من اعتلوا منهم المناصب الكبرى في الدولة، وخاصة البرامكة، فانقلبت تلك الدعوة إلى ما يشبه ثورة على العرب، وأغرى شعراؤهم بإعلانها، فإذا بنا نجد بشاراً الذي كان يفخر في عصر بني أمية بمواليه القيسيين في مثل قوله<sup>(٣)</sup>:

أمنتُ مضرّةَ الفُحُشاءِ أنى      أرى قيساً تضرُّ ولا تُضارُ  
كأن الناس حين تغيب عنهم      نباتُ الأرض أخطأه القطارُ<sup>(٤)</sup>

وقوله<sup>(٥)</sup>:

إنني من بني عُقَيْلِ بنِ كعبٍ      موضع السيف من طُمَى الأعناقِ<sup>(٦)</sup>  
يتغيّر على العرب وكأنما يشعر أن الحياة واتته وأنها استقامت على هواه،  
فيتبرأ من ولاتهم ويرده عليهم، فولأوه لربه يقول<sup>(٧)</sup>:

أصبحتُ مَسُوْلَى ذَى الجلالِ وبعضهم      مولى العُرَيْبِ فَخُذْ بِفَضْلِكَ فَافْتَحِرْ

والنشر) ٢٥٠/٣ .

(٤) القطار : المطر .

(٥) أغاني ١٣٩/٣ .

(٦) الطلي : أصول الأعناق ، واحدها طلية .

(٧) أغاني ١٣٩/٣ .

(١) انظر كتاب المصا في فاتحة الجزء الثالث من البيان والتبيين .

(٢) راجع كتاب العرب لابن قتيبة في رسائل البلاء نشر محمد كرد على .

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ١٣٩/٣ وديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة

مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفُتَعَالِ<sup>(١)</sup> ومن قريش المشعَرِ  
فارجعْ إلى مولاك غيرَ مدافع سبحان مولاك الأجلَّ الأكبر

ويفخر بقومه فخرًا عنيًا ، ويحاول الغُصَّ من العرب بكل ما وسعه ، وما  
يصور عُنْفَ ذلك عنده قصيدته<sup>(٢)</sup> :

هل من رسولٍ مخبرٍ عني جميعَ العربِ  
بأنسني ذو حَسَبٍ عالٍ على ذى الحسبِ  
جددِي الذى أسمو به كسرى . وساسان أبى  
وقيصرُ نحالى إذا عددتُ يومًا نسي

ومضى يتحدث عن أجداده من الفرس وأخواله من الروم وأنهم كانوا  
ملوكًا متوجين يتحلون بالجوهر ويلبسون الفراء الثمينة ، وذكر ما كانوا يضربونه  
حولهم من الحجابة ، وكيف كان الوصفاء يسعون بين أيديهم بصحاف الذهب  
وأوانيه . وافتخر بأن الدولة العباسية قامت على حرايبهم ، وعدد كثيرًا من مظاهر  
الحشونة عند العرب . وهى شعوبية جامحة دفعته دفعا إلى أن يهجو العرب بقصيدة أخرى  
أكثر مرارة<sup>(٣)</sup> . ويروى أنه دخل على المهدي وقد عرف ثورته على العرب  
وشعوبيته فقال له : فيمن تعتدُّ يا بشار؟ فرد عليه : أما اللسان والرئى فغريبان وأما  
الأصل فعجمي كما قلت فى شعري يا أمير المؤمنين :

ونُبِّئتُ قوماً بهم جِنَّةٌ يقولون : من ذا وكنت العَلَمُ  
ألا أيها السائل جاهدًا ليعرفنى أنا أنفُ الكرمِ  
نمتُ فى الكرامِ بنى عامرٍ فروعى وأصلى قريشُ العَجَمُ

وسأله المهدي : فن أى العجم أصلك؟ فقال : من أكثرها فى الفرسان ،  
وأشدّها على الأقران ، أهل طُخارستان<sup>(٤)</sup> . ولا يغضب المهدي ولا يثور على

(١) الفُتَعَال : الفعل الجميل من الكرم ونحوه . (٢) انظر الديوان ٣/٢٢٩ .  
(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٣/١٣٨ . (٤) الديوان ١/٣٧٧ .

نحو ما غضب وثار هشام بن عبد الملك في العصر الأموي حين افتخر إسماعيل ابن يسار النسائي في بعض مديحه له بآبائه الفرس<sup>(١)</sup> . ولم يكن إسماعيل يقصد إلى شعوبية تائرة على العرب على نحو ما كان يقصد بشار . ومعنى ذلك أن تحولا واضحا حدث في الحياة ، حتى أصبح الخلفاء يُغضون على هذه الشعوبية ، وما يُطوَى فيها من عصبية جنسية ، وكان من أهم الأسباب في هذا الإغضاء أن العجم هم الذين دفعوهم إلى منصة الحكم .

وإذا تركنا بشاراً إلى الجيل التالي المعاصر للبرامكة في زمان الرشيد وجدنا هذه الشعوبية تشتد ، إذ ازداد تأثر الشعراء بالحضارة الفارسية المادية ، ودفعهم ذلك إلى التمرد على التقاليد العربية والإسلامية ، فخرجوا على عادات العرب الاجتماعية ونظم الإسلام وقوانينه ، ولعل أبا نواس خير من يمثل هذا الجيل ، وأغلب الظن أن ثورته لم تكن ثورة جنسية ، بل كانت ثورة حضارية من نوع خاص ، ثورة الحضارة الفارسية وكل ما اتصل بها من خمر ومجون على العرب وحياتهم الإسلامية ، وهو يثور في ضجيج وعجيج وصياح وهجوم حتى على الشعر وتقاليده ، على نحو ما نرى في قوله<sup>(٢)</sup> :

قل لمن يبكي على رسمٍ دَرَسَ ° واقفًا ما ضرَّ لو كان جَلَسَ °  
تصف الرِّبْعَ ومن كان به ° مثل سَلَمَى ولُبَيْنى وخَنَسَ °  
اترك الرِّبْعَ وسلمى جانبًا ° واصطبح كَرَّخِيَّةَ<sup>(٣)</sup> مثل القبس °

وقوله<sup>(٤)</sup> :

عاجَ الشَّقِيَّ على رسمٍ يُسائله ° وعُجِبْتُ أسأل عن خَمَّارة البلد<sup>(٥)</sup>  
يبكى على طلل الماضين من أسد ° لا دَرَّ دَرَّكُ قل لي : مَنْ بنو أسد ؟  
ومن تَمِيمٍ ° ومن قيسٍ ° ولَفَّهَما ؟ ° ليس الأعرابُ عند الله من أحدٍ °

(٣) كرخية : خرة منسوبة إلى الكرخ ،  
ناحية بغداد .

(٤) ديوان ص ٢٦٦ .

(٥) عاج : وقف وعطف على المكان .

(١) أغاني (طبع دار الكتب ، ٤٢٢/٤ وما بعدها .

(٢) ديوان أبي نواس (طبعة آصاف)  
ص ٢٩٩ .

ولم تقف الشعوبية عند ذلك فقد كان الشعراء من العجم يتعصبون للوزراء منهم حين يَلون الحكم ، وكان هؤلاء يغدقون عليهم في العطاء ، كما كانوا يغدقون على الشعراء من العرب حين يمدحونهم . وكلما وجد في عصر الرشيد شاعر لم يمدح البرامكة ، وتنبه زعماء العرب للفكرة ، فكانوا يجزؤون للشعراء في عطاياهم ، ومدائح مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة مشهورة ، وكذلك مدائح علي بن جبلة في أبي دُلَاف العجلي وحُمَيد الطوسي . وقد جذبوا بنوالم كثيرين من شعراء الفرس ، ومدائح مسلم بن الوليد في يزيد بن مزيد تدور على كل لسان . وقل ذلك نفسه في الخلفاء ، فقد كان بأيديهم خزائن الدولة ، فثلثوا منها حجور الشعراء . وكان ذلك كله باعثاً في تجويد الشعراء لمدايحهم ومراثيم حتى أتوا فيها بالعجب العجيب .

### اللهو والمجون

لعل مجتمعاً عربياً لم يعرف اللهو والمجون كما عرفهما المجتمع العباسي في القرنين الثاني والثالث ، فقد غرق الناس في الكوفة والبصرة وبغداد إلى آذانهم في الحضارة الفارسية المادية وما يَطْوِي فيها من غناء وخدر . وحقاً بدأت طلائع ذلك في أواخر العصر الأموي حين ظهر الوليد بن يزيد وحين أخذت الكوفة تسرف على نفسها في اللهو وما يتبعه ، لكن ذلك لا يقاس في شيء إلى ما كان في العصر العباسي الذي شعر فيه الفرس بحريتهم ، حتى لتأخذ شكل ثورة عاصفة على جميع التقاليد العربية . ومضى أبناء هذه الثورة يعبثون من كتوس اللهو والخمر حتى الثمالة ، وانتشرت دورهما في كل مكان ، ولم تكن تزخر بالخمر والغناء وحدهما ، بل كانت تزخر أيضاً بالقيان والغلمان .

وساعد في اتساع هذه الموجة شيان : ظهور مذاهب شاكّة بلبت الأفكار وعلى رأسها مذاهب الزنادقة والدهريين ، ثم انتشار دور القيان ، التي كانت تعرضن للبيع ، وكانت تثقفهن وتؤدبهن وتعلمهن الغناء ، ومر بنا في الفصل السابق تفصيل الحديث عن هذه الحركة وأثرها في الشعر ومبادئه وأوزانه . وهي لم تقف

عند ذلك فإن أصحاب هذه الدور كانوا يتخذونهن لتسليّة رُؤاها وابتزاز أموالهم ، فكانت مألُفاً للشعراء يختلفون إليها ، وكانوا ينظمون فيهن أشعارهم ، وهن يغنينهم فيها ، بينما هم يشربون ويقصفون . ومن غير شكّ كنّ من أهم الأسباب في إذاعة الشعر العباسي الحديث عند مطيع بن إياس وبشار وأبي نواس وأضرابهم ، إذ كنّ يحملته معهم حين يبتعنّ ، فيدخلنّ به في دار الخلافة ودور الأشراف ، كما ينقلنه إلى الأمصار الإسلامية اللاتي يرحلنّ إليها .

ويصور كتاب الأغاني الضخم هذا الجانب العاثر من الحياة العباسية ، جانب القيان وغنائهم والأغاني التي تغنوا بها وأخبارهن مع الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دورهن وما نشأ بينهم وبين هؤلاء القيان أو الجوارى من حب ، صوروه تصويراً طريفاً في أشعار ، كنّ يتغنين بها ، وذاعت في كل مكان . وقلما يلمع شاعر إلا وله جارية أو جوار يُدعِين شعره ، فلمطيع بن إياس جواريه ، ولبشار جواريه الأخرى ، واشتهر غير شاعر بجارية وقف عليها شعره ، اشتهر أبو نواس بجنان ، واشتهر أبو العتاهية بعُتْبة والعباس بن الأحنف بفوز ومحمود الوراق بسكن وسعيد بن حمّيد بفضل . وكان مسلم بن الوليد يلقب بصريع الغواني .

وطبيعي أن تكون حياة هؤلاء القيان والجوارى حياة ماجنة ، ليس فيها طهر إلا شذوذاً ، وصوّر الجاحظ العلة في ذلك ، فقال : « كيف تسلّم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب الأهواء وتتعلّم الألسن والأخلاق بالمشأ ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ... وبين الخلاء والمجان ومن لا يُسمع منه كلمة جيد ، ولا يُرجع منه إل ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة ، وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة آيات ، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر ، إذا ضرب بعضه ببعض ، عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهب من عقاب ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكّر . . العشق والصبوة والشوق والغنمة ، ثم

لا تنفك من الدراسة لصنعها منكبّة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرّحهم كله تجميش<sup>(١)</sup> . . . . وهؤلاء الجوّاري كن يختلفن ما بين عوادة وزامرة وصنّاجة ورقاصة وطنبورية ودقّافة. وكانت كثيرات منهن يحسنّ الشعر كما يحسن الغناء . يقول أبو الفرج في دنانير جارية البرامكة : « كانت من أحسن الناس وجهاً وأظرفهم وأكلهم وأحسنهم أدباً وأكثرهم رواية للغناء والشعر<sup>(٢)</sup> » ويقول في متيسّم « كانت صفراء مولدة من مولدات البصرة ، وبها نشأت وتأدّبت وغدّت ، وأخذت عن إسحق الموصلي وعن أبيه من قبله . . . . وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناءً وأدباً ، وكانت تقول الشعر ليس مما يستجاد ، ولكنه يستحسن من مثلها<sup>(٣)</sup> » ويقول في عريب : « كانت مغنية محسنة وشاعرة صالحة الشعر ، وكانت مليحة الخطّ والمذهب في الكلام ونهاية في الحسن والجمال والظرف وحسن الصورة وجودة الضرب واتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار والرواية للشعر والأدب<sup>(٤)</sup> » . وكن يستخدمن معرفتهن بالشعر في اجتذاب الرجال إليهنّ بوسائل مختلفة ، إذ كن يكتبن أبياتاً مثيرة على عصائهنّ ومشادّ الطررّ والذوائب وعلى المناديل والوسائد والأسرة أو يكتبنها بالحناء على الأقدام<sup>(٥)</sup> ، ويروى بعض العباسيين أنه رأى عريب وعليها قميص موشّح بالذهب مكتوب في وشاحه :

وإني لأهواه مسيئاً ومحسناً وأقضى على قلبي له بالذي يتقضى  
فحتى متى روح الرضا لا ينالني وحتى متى أيام سخطك لا تمضى<sup>(٦)</sup>  
وترجم ابن المعتز في آخر طبقاته لطائفة منهن كن يحسنّ الشعر<sup>(٧)</sup> ،  
لعل أهمهن فضل عاشقة سعيد بن حميد ، وشعرها في الأغاني بصور  
عشقها له ومراحلها<sup>(٨)</sup> .

وقد بعثت هؤلاء الجوّاري في الكوفة والبصرة وبغداد لهماً واسعاً على نحو

- |  |  |
|--|--|
| (١) انظر ثلاث رسائل الجاحظ (نشر فنكل) ص ٧٢ . | (٥) الموشى للوشاه (طبعة مصر) ص ١٧٢ وما بعدها . |
| (٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٦/١٣٠ .             | (٦) الموشى ص ١٧٣ .                             |
| (٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ٧/٢٥٣ .           | (٧) انظر الطبقات ص ٤٢١ وما بعدها .             |
| (٤) أغاني (طبعة الساسي) ١٨/١٧٥ .             | (٨) أغاني (طبعة الساسي) ٢١/١١٤ .               |

ما مرّ بنا في غير هذا الموضع عند مطيع بن إياس : طليعة اللهو الماجن في الكوفة وتبعته جماعته هناك من أمثال والبة والحمادين الثلاثة : حماد عجرد، وحماد بن الزبيرقان، وحماد الراوية . وكان بشار في البصرة لا يتغنى بالخمير فحسب ، بل أكثر ما يتغنى به وصف ما يدور بين المرأة والرجل من علاقات حسية . ثم ظهر أبو نواس والحسين بن الضحاك الخليلع وجيلهما فبلغوا من تصوير اللهو والمجون والشذوذ كل مبلغ ، وكأن الحياة لم يعد فيها إلا العبث والفجور والاختلاف إلى الحانات ودور القيان ، روى الأغاني أنه اجتمع يوماً أبو نواس والحسين بن الضحاك وأبو العتاهية وهم مخمورون ، فقالوا أين نجتمع ؟ فقال القراطيسي :

ألا قوموا بأجمعكم      إلى بيت القراطيسي  
لقد هيأنا النزل      غلام فاره طوسي  
وقد هيأ الزجاجات      لنا من أرض بلقيس  
وقينات من الحور      كأمثال الطواويس<sup>(١)</sup>

وكان بيت القراطيسي من بيوت القيان الكبيرة التي كان يجتمع فيها الشعراء، ومثله بيت ابن رامين<sup>(٢)</sup> وبيوت أخرى كثيرة كانت لياليها كأنها أعراس ، يحتفل فيها الشعراء بحبهم وبمجنونهم وإثمهم ، فإن تركوها فإلى ليالي يجيئونها في بيوت الأعيان والأشراف بين السماع والعزف والقصف والخمر والعواطف الشاذة وغير الشاذة ، ومن خير ما يصور هذا المجتمع الماجن قصيدة أبي العتاهية<sup>(٣)</sup> :

لَهْفِي عَلَى الزَّمَنِ الْقَصِيرِ      بَيْنَ الْحَوْرَتِيقِ وَالسَّيْدِ<sup>(٤)</sup>  
إِذْ نَحْنُ فِي غُرْفِ الْجِنَا      ن نَعُومُ فِي بَحْرِ السُّرُورِ  
فِي فِتْيَةٍ مَلَكَوْا عِنَا      ن الدَّهْرَ أَمْثَالَ الصَّقُورِ

(٤) الخورنق والسدير : قصران تروى الأساطير أن النعمان الأكبر بناهما بالقرب من الكوفة .

(١) أغاني (طبعة الساسي) ٨٩/٢٠ .  
(٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٢٢/١٣ .  
(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ٦٠/٤ .

يتعاورون مُدامةً  
عذراءً ربّاهَا شعاً  
لم تُدْنِ من ناري ولم  
ومُقَرَّطَقٍ يمشي أما  
بزجاجةٍ تستخرج السَّ  
زهراءَ مثل الكوكب الـ  
تدع الكريم وليس يدُ  
ومخصّرات زُرُننَا  
ربّاهَا رَوّادٍ فهنّ يلدُ  
غُرّ الوجوه محجّبا  
متنعّمات في النعمـ  
يرفُلنَ في حُللِ المحا

صَهَبَاءُ من حَلَبِ العَصِيرِ (١)  
عُ الشمس في حَرِّ المَجِيرِ  
يعلق بها وضرُّ القُدورِ (٢)  
م القوم كالرَّشَاءِ الغَرِيرِ  
رَّ الدفينَ من الضميرِ  
لدُرِّي في كف المديِرِ  
رى ما قبيلٌ من دَبِيرِ (٣)  
بعد الهدوِّ من الخلدورِ (٤)  
بسِّن الخواتم في الحصورِ (٥)  
ت قاصرات الطَّرفِ حُورِ (٦)  
يم مضمّحات بالعَبِيرِ (٧)  
سن والمجاسد والحريِرِ (٨)

ولم تكن حياة أبي العتاهية كلها لهواً ومجوناً ، فقد انصرف عن هذا العبث وتلك اللعاعة إلى الزهد . وربما كان أبو نواس أهمّ من حمل ذنوب عصره على ظهره ، فقد عاش حياة مهتكة آثمة يندى لها جبين الأخلاق والآداب الاجتماعية ، واشتهر بإجادته لفن الحمريات إذ نظم فيها أروع شعره ، حتى عدّه شاعر الحمرة في العربية ، وهو حقّاً لا يبارى في التغني بها ، إذ كانت تملك عليه شعاف قلبه على نحو ما نرى في قوله (١) :

أثنَ على الحمرة بآلائها  
وسمّتها أحسن أسماءها

- (١) يتعاورون : يتداولون .  
(٢) الوضّر : الأذى والندس .  
(٣) القبيل : ما قابلك ، والدبیر : ما خالفك ، والعبارة كناية عن أنه لا يدري شيئاً .  
(٤) مخصّرات : دقيقات الحصور ، والهدو: أوائل الليل .  
(٥) ریا : متلّة .  
(٦) قاصرات الطرف : حابات عيونهن عن النظر إلى الرجال .  
(٧) مضمّحات : مطيات ، والعبير : أخلاط من الطيب والزعفران .  
(٨) المجاسد : جمع مجسد ، وهو القميص الذي على البدن .  
(٩) الديوان (طبعة آصاف) ص ٢٣٩ .

فهى وثنه وصنمه . وذهب يعلن فى جرأة أن هذا الصنم هو الذى ينبغى أن يقف به الشعراء ويطوفوا حوله ، لا حول الأطلال والنساء البدويات ، فقد تغيرت الحياة وخالف تلك النساء جوارٍ حسانٌ تشعُ منهن الفتنة والإغراء ، ومن قوله فى ذلك (١) :

لا تَبْسُكِ لَيْلٍ وَلَا تَطْرَبِ إِلَى هِنْدٍ      واشربْ على الورد من حمراء كالوردِ  
كأساً إذا انحدرتْ فى حَمَلْتِ شَارِبَهَا      أجددْتهُ حُمُرْتَهَا فى العين والحدِّ (٢)  
فالخمر يا قوتةُ والكأسُ لؤلؤةُ      فى كفٍ جاريةٍ ممشوقة القَدِّ  
تسقيك من طرَفِهَا خمرًا ومن يدها      خمرًا فاللك من سُكْرَيْنِ من بُدِّ

وما يزال يصف الخمر وسقاتها وندمانها وكثوسها ودنانها ومجالسها وما بها من أزهار وريحان وقيان وغلمان . وتحدث فى غير خمرية إلى أصحاب حاناتها من اليهود والمجوس والنصارى ، وأفاض فى وصف خمر الأديرة ورهبانها وراهباتها ، وكان يكثر من الإلام بدير حنّة ، وفيه يقول (٣) :

يا دَيْرَ حَنَّةٍ مَنْ ذَاتِ الْأَكْبِرَاحِ      من يَصْحُ عَنْكَ فَإِنِ لَسْتُ بِالصَّاحِي  
رَأَيْتَ فَيْكَ ظَبَاءً لَا قَرُونَ لَهَا      يَلْعَبْنَ مِنَّا بِالْبَابِ وَأُرَاحِ

ومما يميزه فى خمرياته تنوعه فى معانيها وإحكامه لتأليفها حتى لتبدو الوحدة العضوية تامة فى كثير من مقطوعاتها ، وفى أثناء ذلك يعبر عن شغفه بها وذكرياته لها على شاكلة قوله (٤) :

وذار نَسَدَامِي عَطَلُوهَا وَأَدَلَّجُوا      بها أثيرٌ منهم جديدٌ ودارسٌ (٥)  
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزَّقَاقِ عَلَى الثَّرَى      وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٍّ وَيَابِسٍ (٦)  
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَدْتُ عَهْدَهُمْ      وَإِنِ عَسَى أَمْثَالُ تِلْكَ لِلْحَابِسِ  
أَقْمَنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا

(٤) طبقات ابن المعتز ص ٢٠٦ .  
(٥) أدبلجوا : ساروا الليل كله أو آخره .  
(٦) الزقاق : جمع زق ، وهو دن الخمر ،  
أضغاث : أخلط .

(١) طبقات ابن المعتز ص ٧٣ .  
(٢) أجدته : أعطته .  
(٣) الديارات النصرانية فى الإسلام لحبيب  
زيات (طبع بيروت) ص ٢٢ .

تُدار علينا الرَّاحُ في عَسَجَدِيَّةٍ حَبَبَتُهَا بِالْوَانِ التَّصَاوِيرِ فَارِسٌ<sup>(١)</sup>  
 قَرَارَتُهَا كَسْرَى وَفِي جَنَابَتِهَا مَهًا تَدْرِيهَا بِالْقَيْسِيِّ الْفَوَارِسِ<sup>(٢)</sup>  
 فَلِلْخَمْرِ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ<sup>(٣)</sup>

والذكري تعبق بنفسه لتلك الدار فيصفها على طريقة وصف المحبين لأطلال محبوباتهم وما بقي من آثار ديارهن، فيقول إن ندامى انصرفوا عنها ولا يزال فيها من آثارهم أضغاث ريحان رطبة ويابسة، ولا يزال بها علامات جبرّ الزقاق . وقد عاج بها مع صحبه فقضى حقها من الوقوف بها ، بل من المكث خمسة أيام يقصف ويشرب وينتشى . ويصف الكأس التي كانوا يتداولونها ويقول لأنها كأس ذهبية رُسمت عليها تصاوير فارسية ، تمثل كسرى في صيده مع فوارسه . وكانوا يصبون فيها الخمر حتى تبلغ أطواق الثياب ، ثم يضيفون الماء حتى يدور بالقلانس . وانظر إلى هذه الأبيات التي يقولها في إحدى خمرياته<sup>(٤)</sup> :

صفراءُ لا تنزلُ الأحزانُ ساحتَها لو مَسَّها حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ  
 رَقَّتْ عن الماءِ حتى ما يلائمُها لطفًا وجفًا عن شكلِها الماءُ  
 فلو مزجتَ بها نورا لمازجَها حتى تولدَ أنوارٌ وأضواءُ  
 دارت على فِتيمةٍ دان الزمانُ لحمَها يصيهمُ إلا بما شاءوا  
 فقلْ لمن يدعى في العلمِ فلسفةً حفظتَ شيئًا وغابتَ عنك أشياءُ

فإنك تحس عمق لذة أبي نواس بالخمر ، حتى لتصبح هذه اللذة فلسفة له في الحياة ، بل إنه ليزعم لأصحاب الفلسفة الكلامية من أمثال النظارم أنه ينقصهم جزء مهم من فلسفتهم ، هو فلسفة الخمر أو هو فلسفة اللذة والنشوة بها . وذهب يُعلنُ هذه الفلسفة ، ويعلن معها استخفافاً بالدين وعقائده التي تحرمها وتحرم معها جملة الآثام التي كان يرتكبها على نحو ما نرى في قوله<sup>(٥)</sup> :

وخذُها إن أردتَ لذيذَ عيشٍ ولا تعدلْ خليلي بالمُدَامِ

(١) عسجدية : كأس ذهبية .

(٢) المها : البقر الوحشي . تدرجها :

(٣) الجيوب : أطواق القمصان والثياب .

(٤) الديوان ص ٢٣٤ .

(٥) الديوان ص ٣٢٧ .

تخاتلها .

وإن قالوا حرامٌ قل حرامٌ ولكن اللذاعةَ في الحرامِ  
وقوله (١) :

الراحُ شيءٌ عَجِيبٌ أنتِ شارِبها فاشربْ وإن حَمَمَتِلكِ الراحُ أوزارا  
يا مَنْ يُلومُ على حمراءَ صافيةٍ صِرَ في الجِنانِ ودغى أسكن النارا

ودفعه ذلك إلى كثير من الإلحاد ، يذيعه في خمرياته ، متعابثاً  
متعابثاً ، وأكثرُ هذا التعابث والتماجن إنما كان يأتيه في أثناء سكره وشربه ، فهو  
ليس لإلحاداً صادراً من قلبه ، وإنما هو عريضة وخلاعة ، حتى لينكر البعث  
والنشور ، في مثل قوله (٢) :

وملحةٌ باللوم تحسب أنني بالجهل أوتر صحبة الشُّطَارِ  
بكرتُ على تَلومني فأجبتها إني لأعرف مذهب الأبرارِ  
فَدَعَى الملام فقد أظعتُ غوايتي وصرفتُ معرفتي إلى الإنكارِ  
ورأيت إتياني اللذاعةَ والهوى وتعجلاً من طيب هذى الدارِ  
أحرى وأحزمَ من تنظُر آجلٍ علمي به رجُمٌ من الأخبارِ  
ما جاءنا أحدٌ يخبر أنه في جنةٍ من مات أو في النارِ

ولم يكن الحسين بن الضحاك يقلُّ عنه خلاعة . وكان مثله يكثر من الغزل  
بالغلمان ، ويظهر أنه كان من ذوق هذا العصر ومجانته الآثمين أن يكون الغلام  
ألفح أغنَّ الصوت ، يتطيب ، ويصفِّف شعره ويجعله كالعقرب على صدغه ،  
يقول الحسين في غلام (٣) :

بأبي ماجين السَّري رة يبئدى تَعَقَّفَا  
حَفَّ أَصداغُه وَعَقَّفُ رِبها ثم صَقَّفَا  
وحشًا مَدَّ رَجَّ القُصَا ص بمسكٍ ورصفاً

ويرَوِّى الأغاني للحسين كثيراً من المقطوعات في وصف الغلمان ، مما يدا

(١) الديوان ص ٢٨٣ .

(٢) انظر الموشع للمرزبان ص ٢٧٨  
وما بعدها والوساطة بين المتنبي وخصومه ( طبعةالحلى) ص ٦٣ وما بعدها .  
(٣) أغاني ( طبعة دار الكتب ) ١٨٠/٧

على أنه كان مولعاً بالشذوذ الجنسي ، وما رَوَى له من ذلك قوله في غلام<sup>(١)</sup> :

عالمٌ بِحُبِّيهِ	مُطَّرِقٌ من التَّيِّبِ
يوسفُ الجمالِ وفر	عونُ في تعدِّيهِ
لا وحقَّ ما أنا من	عَطْفِهِ أَرْجِيهِ
ما الحياةُ نافعةٌ	لى على تَأْبِيهِ
النَّعيمُ يشغلهُ	والجمالِ يُطغِيهِ
فهو غيرُ مكترثٍ	للذى أَلَاقِيهِ
تائهٌ تزهدُهُ	فِي رَغْبِي فِيهِ

والولع بالغللمان كان آفة من آفات هذا العصر ، ومن يقرأ الأغاني يُحْيِلُ إليه أن هذا الولع كان عاماً بين الشعراء ، وكانت دور اللهو تعج بهم ، فقلما توجد دار لهُ دون أن يكون فيها ظبي غرير أو ظبية غريرة بل ظباء مختلفة ، ولعلنا لا نغلو إذا زعمنا أن ما خلّفه العصر العباسي من الغزل الشاذ بالغللمان يعدل ما خلفه من الغزل بالحواري والقيان . وكان الشعراء في هذا الغزل جميعه لا يعبرون غالباً عن عواطف روحية ، إنما يعبرون عن لذائذ حسية مسفة . وتعلّق الحسين على شاكلة أبي نواس بالأديرة ووصف قساوسها ورهبانها ، ومن قوله في دير مُدَيان<sup>(٢)</sup> :

يا دَيْرَ مُدَيانِ لا عُرِّيتَ من سَكَنِ	هَيَّجَمَتَ لِي سَقَمًا يا دِيرَ مُدَيانِ
هل عند قَسَّك من علمٍ فيخبرنا	أم كيف يُسْعِفُ وجهُ الصَّبْرِ مِن بَانا
حُتَّ المِدامِ فإن الكَأْسَ مَرَعَةٌ	مما يهيج دواعي الشوق أحياناً

وأكثر الشعراء من التغنى بالأديرة وخمورها ، حتى ليؤلف ذلك ديواناً ضخماً من دواوين الشعر العباسي ، ولعل ذلك ما جعل القدماء يكثرّون من التأليف في هذا الموضوع ، وربما كان أهم شاعر أكثر من النظم فيه في أثناء القرن الثالث الهجري هو ابن المعتز ، فديوانه يفتح بالحديث عن الأديرة كدير المطيرة ودير السوسى

ودير عبّدون ، وفيه يقول (١) :

سقى الجزيرة ذات الظل والشجرِ      وديرَ عبّدون هَطَّالٌ من المطرِ  
يا طالما نَبَّهتني للصبح به      في ظلمة الليل والعصفورُ لم يَطِرِ  
أصواتُ رهبانِ دِيرٍ في صلاتهم      سود المدارع نَعَّارين في السَّحَرِ

ويظهر أن الرهبان كانوا يعنون بجمورهم ، فتعلق بها الشعراء ، وطلبوها من كل دِير ، ووصفوا ما لذ لهم منها وطاب كشراب القربان الذي يقول فيه ابن المعتز (٢) :

أسكنوها في الدنّ من عهد نوحٍ      كظلامٍ فيه نهارٌ حبيسٌ  
من شراب القربان يوصى بها الشّم      اسُ خَزَّانَ بيتها والقسوسُ

والحق أن كثيرًا من الشعراء في القرنين الثاني والثالث أسرفوا على أنفسهم في اللذات ، تدفعهم إلى ذلك الحضارة المادية التي عاشوها ، وذهبوا يصورون ذلك في صراحة صريحة وإباحية سافرة ، لا يردعهم خلق ولا دين ، فحلفوا لنا دواوين ضخمة من أدب عار مكشوف ، قلما عرف أصحابه شيئاً من الخجل والحياء .

#### الزندقة والزهد

رأينا الفرس يسيطرون بحضارتهم المادية على حياة الشعر والشعراء . فإذا تلك الحياة تَطَبَّعُ بطواع قوية من اللهو والحجون . وأخذوا ينقلون تراثهم الأدبي الفارسي بكل ما فيه من معتقدات دينية عُرِفَتْ بين آبائهم ، فنقلوا «الأفستا» كتاب داعيتهم زرادشت وما كان يذهب إليه من أن في العالم إلهين : إلهاً للخير والنور هو أهورا مزدا وإلهاً للشر والظلمة هو دروج أهرمن . وكان هذا الكتاب يشتمل على صلوات ومواعظ . وظهر بعده ماني ومزج بين عقيدته والنصرانية ودعا إلى زهد شديد ، وأخذ يفسر كتاب الأفستا تفسيراً عقلياً ، فعدوه في أول الأمر مارقاً ، وسما أتباعه زنادقة أي ملحدين ، ولم تلبث تعاليمه أن عمّت في بلاد الفرس . ولم يستطع مزدك داعيتهم الثالث الذي ظهر في أواخر القرن الخامس الميلادي أن

(١) الديارات لحبيب زيات ص ٢٩ . (٢) الديارات ص ٤١ .

يكسر من تعاليم المانوية أو أن يخضد من شوكتها . وظل الإيرانيون بعد الإسلام يتعلقون بها ، حتى إذا انتهينا إلى زمن العباسيين وجدناها لا تزال حية مزدهرة ، ولا يزال كثير منهم ثوباً يؤمن بإلهى النور والظلمة . وكان نَقَرٌ منهم يعلن إسلامه فى الظاهر ويضمُر فى الباطن تلك الزندقة أو تلك المانوية وما أذاعه مانى من عقائد وتعاليم ، ويشرح الجاحظ طرفاً من هذه التعاليم فيقول<sup>(١)</sup> :

« إن المانويَّة تزعم أن العالم بما فيه من عشرة أجناس ، خمسة منها خير ونور وخمسة منها شر وظلمة ، وكلها حاسَّة وحارَّة ، وأن الإنسان مركب من جميعها على قدر ما يكون فى كل إنسان من رُجْحان أجناس الخير على أجناس الشر ورجحان أجناس الشر على أجناس الخير ، وأن الإنسان وإن كان ذا حواس خمسة فإن فى كل حاسة متوناً من ضده من الأجناس الخمسة ، ففى نظر الإنسان نظرة رحمة فتلك النظرة من النور ومن الخير ، ومضى نظر نظرة وعيد فتلك النظرة من الظلمة ، وكذلك جميع الحواس . وإن حاسة السمع جنس على حدة وإن الذى فى حاسة البصر من الخير والنور لا يعين الذى فى حاسة السمع من الخير ولكنه لا يضادُّه ولا يفاسده ولا يمنع ، فهو لا يعينه لمكان الخلاف والجنس ولا يعين عليه لأنه ليس ضدًّا . وإن أجناس الشر خلاف لأجناس الشر ضد لأجناس الخير ، وأجناس الخير يخالف بعضها بعضاً ولا يتضادُّ . وإن التعاون لا يقع بين مختلفها ولا بين متضادها ، وإنما يقع بين متفقها » . وكان مانى يحرم ذبح الحيوان ، ودعا إلى الزهد فى الحياة والتقشف ، وفرض على أتباعه صلوات كانوا يستقبلون بها الشمس ، فيدعون ويزمزمون .

وكلمة زنديق أى مانوى ليست عربية وإنما هى فارسية ، عرِّبت وأطلقت بنفس الاصطلاح الذى كانت تطلق به فى بيئتها الأصلية أى على أصحاب مانى ، وقد كثر هؤلاء الزنادقة منذ فاتحة العصر العباسى ، حتى إذا كنا فى عصر المهدي وجدنا موجتها تبلغ أقصى حدتها ، حتى يضطر إلى اتخاذ ديوان للفحص عنهم والتنكيل بهم ، وأكبر الظن أنه لم يجد فيهم خطراً على الإسلام وحده ،

(١) الحيوان ٤٤١/٤ .

بل رأهم أيضاً خطراً على دولته ، وكذلك شعر الخلفاء من بعده ، وخاصة لتلك الثورات التي كانت تنشب ضدهم في إيران مثل ثورة المقنّع الخراساني الذي كان يزعم أن الذات الإلهية تجسدت في أبي مسلم ثم حلت فيه ، ومثل ثورة خليفته بابك الخرمي لعهد المأمون . ويُحتمل لنا المهدي تعاليمهم في وصيته لابنه الهادي إذ يقول له <sup>(١)</sup> :

« يا بني إن صار لك الأمر فتجرّد لهذه العصابة ( الزنادقة ) فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهرٍ حسن كاجتناب الفواحش والزهّد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجهم إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور وترك قتل الهوامّ تحرجاً وتحروباً ، ثم تخرجهم من هذا إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسالم بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتتقدم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب وجرّد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له » .

ولم يُقم المهدي لهم ديوان الزنادقة فحسب ، بل دعا أيضاً المتكلمين والمعتزلة للرد عليهم وتأليف الكتب في نقض عقيدتهم ، ومن يقرأ الحيوان للجاحظ يرى إلى أي حد شغل المعتزلة من أمثال النظام أنفسهم بمناظراتهم ودحض معتقداتهم ، فهم وأمثالهم من الدهريين شغلهم الشاغل . ويسوق الجاحظ ثبوتا طريفاً يضم من كان يتزندق من الشعراء ، وهم - حسب إحصائه - الحَمَادون الثلاثة : حماد عَجْرَد وحماد الراوية وحماد بن الزَبْرِقَان ويونس بن أبي فَرَوَة وعلي بن الخليل ويزيد بن الفيض ويونس بن هرون وعمارة بن حمزة وجميل بن محفوظ ومطيع بن إياس وقاسم بن زنفطة واللبة بن الحباب وأبان بن عبد الحميد <sup>(٢)</sup> . ويعجّب من زندقة أبان ويقول <sup>(٣)</sup> :

« أما اعتقاده فلا أدري ما أقول لك فيه ، لأن الناس لم يؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر ، ولكن للناس تأسّ وعاداتٌ وتقليدٌ للآباء

(١) الطبري (طبعة أوربا) ٥٨٨/٣ . وقارن بأمال المرتضى ١٣١/١ .  
(٢) انظر الحيوان ٤٤٦/٤ وما بعدها (٣) الحيوان ٤٥١/٤ .

والكبراء ، ويعملون على الهوى ، وعلى ما يسبق إلى القلوب ، ويستقلون التحصيلَ ويهملون النظر، حتى يصيروا في حال متى عاودوه وأرادوه نظروا بأبصار كليلية وأذهان مدخولة ومع سوء عادة . والنفس لاتجيب وهي مستكرهة ، وكان يقال : العقل إذا كثره عمى . ومتى عمى الطبع وجسا وغلظ وأهمل حتى يألف الجهل لم يكذب يفهم ما عليه وله . فلهذا وأشباهه قاموا على الإلف والسابق إلى القلب .»

ويظهر أن أصحاب هذه الدعوة من الفرس كانوا لا يكتفون باعتناقها ، فقد كانوا يدعون إليها من حولهم ، ودخل في اعتقادهم غير عربي مثل مطيع بن إبّاس الكنانى والبة بن الحباب الأسدى إن صحّت عروبتهما . على أننا نلاحظ أن كثيرين ممن كانوا يتهمون بالزندقة في العصر إنما اتهموا بها من أجل فسقهم ومجوسهم واستجابتهم لعرائزم الشاذة ، ونحن لا نستطيع أن نبرى منها مطيعاً ، فقد أحضرت ابنته إلى الرشيد للتحقيق معها في تهمة الزندقة ، فأقرت بها ، وقالت : « هذا دين علمنيه أبى » . وهناك جماعة قتلوا بها ، ونفس قتلهم يشهد شهادة قاطعة بزندقتهم ، فقد قتل المهدي بشاراً ، وإذا رجعنا إلى شعره وجدناه يشيد بعبادة النار في بيته المشهور<sup>(١)</sup> :

الأرض مُظلمةٌ والنار مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ  
واستمد من ذلك دليلاً على أن إبليس خير من آدم ، لأنه خلقت من نار ،  
أما آدم فخلق من طين ، فقال<sup>(٢)</sup> :

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدمُ فتنّبّهوا يا معشر الفُجّارِ  
النارُ عنصره وآدمُ طينتهُ والطينُ لا يسمو سُمُو النارِ

ولما كثر منه ذلك نادى واصل بن عطاء في الناس أن يقتلوه ، ففرّ من البصرة ولم يزل غائباً عنها حتى توفى واصل ، بل حتى توفى عمرو بن عبّيد ، وردّ عليه صفوان الأنصاري بشعر مفحم<sup>(٣)</sup> غير أنه عاد إلى البصرة وعادت معه زندقته ، حتى سفك

١٣٧/٢ .

(١) البيان والتبيين ١٦/١ .

(٢) البيان والتبيين ٢٧/١ وما بعدها .

(٣) رسالة الففران (نشرة كامل كيلاني)

المهديُّ دمه . ومن قتله المهدي على الزندقة صالح بن عبد القدوس الأزدي ، وكان يعلن في البصرة مذهبه في الثنوية . ويقال إن أبا الهذيل العلاف المتكلم ناظره فقطعه ، ثم قال له : على أي شيء تعزم يا صالح ؟ فقال : أستخير الله وأومن بالاثنيين . ولما علم بأن ديوان الزنادقة يرصده هرب إلى دمشق ، فطلبه المهدي وزجَّ به في سجن تلك الفئة الباغية ، حتى يحاكم ، فقال في سجنه :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها      فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى  
قُبِرْنَا ولم نُدفن فنحن بمعزلٍ      من الناس لانحشَى فنحشَى ولانغشَى  
وقيل إنه صلَّى صلاة تامة الركوع والسجود ، فقيل له : ما هذا ومذهبك معروف ، قال : سنَّة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد . وأُحضر للمحاكمة بحضرة المهدي فنوظر فيما اتُّهم به من الزندقة ، فأظهر التوبة ، فقال له المهدي ألسن القائل في حفظك ما أنت عليه :

رُبَّ سِرٍّ كَتَمْتُهُ فَكَأَنِّي      أخرسَ أو نَسِيتُ لِسَانِي خَبِيلٌ  
ولو اني أبديتُ للناس علمي      لم يكن لي في غير حبسِي أَكْلٌ

قال : فإني أتوب وأرجع ، فقال له المهدي : هيهات ! ألسن القائل :  
والشيخُ لا يترك أخلاقَهُ      حتى يُورَآي في ثرى رَمْسِهِ  
إذا ارعوى عاوده جهلُهُ      كذى الضننا عاد إلى نكسِهِ

ثم قُدِّم ، فقتل وصلب على الجسر ببغداد<sup>(١)</sup> . ووراء صالح وبنوهم شعراء كانوا زنادقة حقاً ، ولم يقتلوا ، وكان التهمة لم تثبت عليهم في جلاء لديوان الزنادقة والقائمين عليه . ومن كبار الزنادقة حماد عجرد ، يقول أبو نواس : « كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره ، حتى حبسيت في حبس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاج بيتين بيتين يقرعون به في صلاتهم<sup>(٢)</sup> » . وأبو نواس خير من يصور الصنف الثاني من الزنادقة التي كانت تلصق بهم هذه التهمة بسبب مجونهم ، وبسبب ما قد يبدر على

(١) انظر في أخبار صالح أمال المرتضى البغدادي ٣٠٣/٩ .  
(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤ / ٣٢٤ .

ألسنتهم في قَصْفهم وشربهم من أبيات مارقة على شاكلة قوله (١) :  
يا ناظرا في الدين ما الأمرُ لا قدرُ صحَّ ولا جبرُ  
ما صحَّ عندي من جميع الذي تذكر إلا الموت والقبرُ

ولكن هذا كان تعابثاً ومجانة ، وكان القائمون على ديوان الزنادقة يميّزون بينه وبين الزندقة الحقيقية ، فيكتفون بحبس أبي نواس حين يأمرهم بعض الخلفاء أو بعض الوزراء تعذيراً له ، حتى يرتد عن غيبه .

على أن هذا الجانب في حياة المجتمع العباسي وما انطوى فيه من زندقة ومجون ينبغي أن لا يضع غشاوة على أعيننا فلا نرى هذا المجتمع على حقيقته . لقد كان فيه لهو وترف ، وكانت تحفّه عقائد الزنادقة والدهريين ، ولكن ذلك إنما كان يشيع في بعض البيئات وفي دور المجانة والخلاعة . أما بعد ذلك فقد كانت هناك كثرة ممن يتبعون سبيل الرشاد ، وكان هناك الزهاد والعباد من أمثال عمرو بن عبيد وموسى بن سيار الأسواري وعمرو بن فائد والقاسم بن يحيى وصالح المرّي ، هؤلاء الذين ملأوا العراق بزهدهم ومواعظهم . وكان هناك تلاميذ أبي حنيفة وابن حنبل وأضرابهما من أصحاب الشريعة الإسلامية وحاملة الحديث . وكان هناك المعتزلة الذين وهبوا أنفسهم للذود عن حياض الإسلام والرد على الملاحدة والزنادقة . وكان هناك رابعة العدوية وأمثالها من الزاهدات .

فوجة الزهد لم تكن أقل حدة من موجة المجون، ويظنُّ أنه دخلتها عناصر أجنبية مختلفة من زهد الهنود، وزهد المسيحية ورهبانها، وحتى من زهد المانوية . ولعلنا لانعجب بعد ذلك إذا رأينا بعض الشعراء الماجنين مثل أبي نواس تجرى على ألسنتهم أشعار رقيقة في الزهد (٢) :

وكان صالح بن عبد القدوس على زندقته يكثر من الترغيب عن الدنيا والزهد فيها ، ولا يني يذكر الموت والقبر (٣) . وكان شعره كله أمثالا وحكماً ،

(١) انظر الوساطة ص ٦٣ والموشح (٢) انظر باب الزهد في ديوان أبي نواس .  
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩١ . ص ٢٧٦ .

حتى قالوا إن ديوانه يشتمل على ألف مثل عربي وألف مثل أعجمي<sup>(١)</sup> ،  
 ويعجب ابن المعتز مما يروى عنه من زندقته، ويروى له بعض أشعار زاهدة<sup>(٢)</sup>  
 من مثل قوله :

وليس بعجز المرء إخطاؤه الغي . ولا باحتيال أدرك المال كاسبه .  
 ولكنه قبضُ الإله وبسطه . فلاذا يجاريه ولاذا يغالبه .  
 إذا كمل الرحمن للمرء عقله . فقد كملت أخلاقه ومناقبه .  
 وقوله في أصحاب القبور :

ألا أحدٌ يبكي لأهل محلة . مقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدنيا  
 كأنهم لم يعرفوا غير دارهم . ولم يعرفوا غير التضايق والبلوى  
 وقوله :

فوحق من ستمك السماء بقدرة . والأرض صير للعباد مهادا  
 إن المصير على الذنوب لمالك . صدقت قولي أو أردت عنادا

وربما كان أكبر من تغنى بالزهد في هذا العصر أبو العتاهية ، وقد بدأ  
 حياته ماجناً أشد ما يكون المجنون ، ثم حانت منه التفاتة فزهد في حطام الدنيا  
 وليس الصوف ، وأخذ يتغنى بالموت والفناء وما ينتظر الناس من ظلمة القبر  
 ووحشته على شاكلة قوله<sup>(٣)</sup> :

حتى متى أنت في لهُو وفي لعب . والموتُ نحوك يهوى فاغراً فاه ؟  
 ما كل ما يتمنى المرء يدركه . رب امرئ حثفه فيما تمناه  
 تغتر للجهل بالدنيا وزخرفها . إن الشقي لَمَنَّ غرته دنياه  
 كأن حياً وقد طالت سلامته . قد صار في سكرات الموت تغشاه  
 نلهو وللموت مُمسانا ومُصْبِحنا . من لم يصبحه وجه الموت مساه

وما يزال على هذا النحو يتحدث عن مصير الإنسان الذي ينتظره وأن من

(٣) ديوان أبي العتاهية (طبعة بيروت سنة  
 ١٨٨٦) ص ٢٩٢ .

(١) التحفة البية ٢١٧ .  
 (٢) طبقات الشعراء ص ٩١ وما بعدها .

الخير أن يقدم لهذا المصير العمل الصالح ، قبل أن تفيض روحه وينكشف عنه الغطاء . ونراه يكثر في أثناء ذلك من الإبهالات ومن الدعاء ، منقبضاً عن الدنيا وملاذها وكل ما فيها من متاع ، بل إنه ليقبح هذا المتاع وما يطوى فيه من نعيم حتى ليقول (١) :

رغيفٌ خُبِزَ يابسٍ      تأكله في زاوِيهٍ  
وكوزُ ماءٍ باردٍ      تشربه من صافيه  
وغرفةٌ ضيّقةٌ      نفسك فيها خاليه  
خيرٌ من الساعاتِ في      ظلِّ القصورِ العاليه

وكان يتهم بالزندقة وأن هذه الألحان يستمدها منها على نحو ما استمدها قبله صالح بن عبد القدوس . وكان وراءه ووراء صالح كثير من زهدوا زهداً إسلامياً خالصاً ، ومن ثم لم يتهموا في زهدهم ، لأنهم صدروا فيه عن عقيدة صحيحة مثل أبي محمد اليزيدي ، وله أشعار كثيرة في الموعظة والحكمة ، (٢) من مثل قوله (٣) :

إذا نكباتُ الدهر لم تعظ الفتي      وأفزع منها لم تعظه عواذله  
ومن لم يؤدبه أبوه وأمه      تؤدبه روعات الردى وزلازله  
فدع عنك ما لا تستطيع ولا تطيع      هواك ولا يغلب بحمقك باطله

ومن كانوا يكثر من أشعار الزهد محمود الوراق ، وأكثر أشعاره أمثال وحكم ومواعظ وأدب (٤) على شاكلة قوله (٥) :

بكيّت لقرب الأجل      ويعد فوات الأمل  
ووافد شيب طرّاً      بعقب شباب رحل  
شبابٌ كأن لم يكن      وشيبٌ كأن لم يزل

(٤) ابن المعتز ص ٣٦٨ .  
(٥) انظر في هذه القطعة وتالياتها البيان والتبيين ١٩٨/٣ وقارن بزهر الآداب ٨٩/١ وعيون الأخبار ٣٢٦/٢

(١) الديوان ص ٣٠٤ .  
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٧٥ .  
(٣) معجم الأدباء لياقوت (طبعة مصر) ٣٢/٢٠ .

طواك بِشِيرُ البقاءِ وحلَّ بِشيرِ الأجلِ .

وقوله :

رأيت صلاحَ المرءِ يُصلحُ أهله  
يعظَّمُ في الدنيا بفضلِ صلاحِهِ  
ويُعَدِّمُ داءُ الفسادِ إذا فسدَ  
ويُحْفَظُ بعد الموتِ في الأهلِ والولدِ

ومعنى هذا كله أن ألحان الزهد لم تكن تقل عن ألحان المجون إن لم تزد عليها ، وغاية ما في الأمر أن الألحان الأخيرة هي التي كانت تذيب على ألسنة الجوارى والمغنين ، وقد نشروها في كل مكان .

## ٢

### العلاقات اللغوية

إذا رجعنا إلى عصر بني أمية وجدنا الكوفة والبصرة أهم مَصرين عربيين تصطدم فيهما اللغة العربية باللغات الأجنبية ، فقد كان سكانهما أخلطاً من العرب والموالي فرساً وغير فرس . وحقاً كان هؤلاء الموالي يتعربون ، ولكنهم كانوا يجدون عناء شديداً من نظام الإعراب والتصريف في العربية ، ولعل ذلك ما جعل هاتين المدينتين تبادران إلى وضع قواعدهما ، حتى لا يضل الموالي في شعابهما الوعثة . ولم يكن هذا كل ما عانوه ، فقد كانوا يعانون أيضاً من لُكناتهم وما يضطرون إليه من تكيف عضوى لمخارج الحروف ينجحون فيه أحياناً ، وأحياناً يفشلون ، فكان من الصعب عليهم مثلاً أن ينطقوا بحروف الإطباق التي لا يعرفونها في لغاتهم أو ينطقوا بالعين أو بالحاء ، وكان ذلك يصيب ألسنتهم بضرور مختلفة من اللغات . وكان ينزلق إلى العربية على ألسنتهم كثير من الألفاظ الدخيلة التي أخذت تعرب ، تارة عن النبطية التي كان يتحدث بها سكان السواد في العراق وتارة عن الفارسية التي كانت منتشرة بين سكان الكوفة والبصرة ، ويعرض علينا الجاحظ في بيانه مدى تأثيرهما في عربية البلدين

ولغتهما اليومية<sup>(١)</sup> ، ويقول إن هذا التأثير نفذ إلى سكان المدينة في الحجاز<sup>(٢)</sup> ونحن لا ننسى الأجيال العربية الأخيرة في عصر بني أمية ، فقد كان كثير منهم من أبناء الجوارى الأجنبية ، وكانوا يتأثرون بأمھاتهم في نطقهم لبعض الحروف<sup>(٣)</sup> وأيضاً فإنه بمضى الزمن أخذ كثير من العرب ينشأ في المدن ، منبتاً الصلة بالبادية ، فضعفت السلاتق اللغوية وأخذ يظهر اللحن بين فصحاءهم ، بل إننا نجد بعض من نشثوا في البادية يكتحون مع ما عرفوا به من فصاحة مثل الحجاج<sup>(٤)</sup> ، ولعل ذلك ما جعل خلفاء بني أمية يحرصون على تأديب أبنائهم ، حتى لا يلحنوا في خطابهم<sup>(٥)</sup> .

وإذا أخذنا ننظر في الشعراء الذين اشتهروا في البصرة والكوفة لعهد بني أمية وجدنا كل هذه الظواهر التي قدمناها بارزة في أخبارهم ، فهذا يزيد بن مفرغ الذي عاصر زياد بن أبيه وابنه عبید الله يحشوشعره بالألفاظ الفارسية<sup>(٦)</sup> ، وكان ينسب نفسه في حمير ، غير أننا نظن ظناً أنه كان فارسياً ، وظهر من بعده شاعر فارسي لاشك في فارسيته هو زياد الأعجم ، كان جزل الشعر فصيح الألفاظ<sup>(٧)</sup> ، ومع ذلك كان يجد صعوبة في تكييف مخارج الحروف التي تخالف حروف لغته ، فكان يبدل العين همزة والحاء هاء ويجعل السين شيئاً والطاء تاء<sup>(٨)</sup> ويُشدد قوله في المهلب بن أبي صفرة أو ابنه يزيد<sup>(٩)</sup> :

فتي زاده السلطان في الود رفعة  
إذا غير السلطان كل نخليل

- 
- (١) البيان والتبيين ٢٠/١ وما بعدها .  
 (٢) نفس المصدر ١٨/١ وما بعدها .  
 (٣) انظر البيان والتبيين ٢٠٧٢/١ ، ٢١٠/٢ وما بعدها حيث يروي أن عبید الله بن زياد ابن أبيه كان يبدل الحاء هاء والقاف كافاً ، ويمثل لذلك بأنه نشأ في حجر بعض العجم .  
 (٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دارالمعارف ص ١٣ والبيان والتبيين ٢١٨/٢ .  
 (٥) عيون الأخبار ٢/١٥٨ ، ١٦٧ وانظر  
 البيان والتبيين وما يرويه من لحن الوليد ابن عبد الملك ٢/٢٠٤ وما بعدها .  
 (٦) البيان والتبيين ١٤٣/١ .  
 (٧) أغاني (طبعة الساسي) ٩٩/١٤ .  
 (٨) أغاني ٩٩/١٤ والبيان والتبيين ٧١/١ والكمال للمبرد (طبعة رايت) ص ٣٦٦ .  
 (٩) في الحيوان ٧/١٥١ أن البيت من قصيدة في يزيد وفي الكامل ص ٣٦٦ أنه في المهلب أبيه .

فيقول: « زاده الشُّلتان »<sup>(١)</sup>. ولما تردد منه ذلك على سمع المهلب أهدى إليه غلاماً فصيحاً يكفيه مثونة إنشاده شعره .

وهذا فيما يختص بالموالي ، أما العرب فإننا نلتقى في أواخر العصر الأموي بشاعرين عربيين حمّضيين ، لم ينشأ في البادية ، وهما الطرّمّاح والكُمَيْت . أما الطرمّاح فيروون أنه كان يكتب ألفاظ النبط الآراميين ويدخلها في شعره<sup>(٢)</sup> ، وكان معلماً يؤدّب الصبيان فتعلق بأن يقدم لهم شعراً مملوءاً بالألفاظ الغريبة ، ولكن أنى له وهو ليس بدويّاً ؟ لقد لجأ إلى طريقة سهلة : أن يسأل البدو ومن نشئوا في البادية عن بعض الألفاظ الآبدة ويسلكها في نظمه<sup>(٣)</sup> ، وكان يوفّق أحياناً في استخدامها وأحياناً لا يوفق ، ومن أجل ذلك رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره<sup>(٤)</sup> . ولم يكن الكميت يشرّك الطرمّاح في الظاهرة الأولى ظاهرة استعارة الألفاظ النبطية في شعره ، ولكنه كان يشركه في الظاهرة الثانية ، إذ كان يرجع إلى رُوّبة الراجز البدوي ، فيسأله عن الغريب من الكلم فيخبره به ويكتبه ، ثم ينظمه في شعره<sup>(٥)</sup> ، وكذلك كان يرجع إلى جدّتين له أدركتنا الجاهلية ، فكانتا تصفان له البادية وشؤونها ، وينقل وصفهما إلى أشعاره<sup>(٦)</sup> . وبذلك كان مثل صاحبه لم يتغذّب بلبان البادية مباشرة ، فأخطأته الفطرة اللغوية في كثير من ألفاظه وأوصافه ، وصوّر ذلك ذو الرمة تصويراً طريفاً حين أنشده بعض قصائده وسأله رأيه ، فقال له : « إنك لتقول قولاً ما يقدر إنسان أن يقول لك فيه أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واعترف له الكميت بأن مرجع ذلك أنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ،

(٤) الموشح ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .  
 (٥) الأغاني ٣٦/١٢ ، والموشح ١٩٢ .  
 (٦) الأغاني (طبعة السامى) ١٥/١٢٠ .

(١) البيان والتبيين ٧١/١ .  
 (٢) الموشح للمريزاني ص ٢٠٨ .  
 (٣) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٦/١٢ .  
 والموشح ٢٠٩ .

وإنما يصف شيئاً وُصِفَ له (١) . وكذلك كان شأنه في استخدامه للغريب ،  
ومن ثمَّ رفض اللغويون الاستشهاد بأقواله وأشعاره (٢) .

ومعنى ما قدمنا أن عصر بني أمية يمدنا بأمثلة فردية لشعراء عاشوا في  
البصرة والكوفة وأخذت العربية على ألسنتهم تتأثر باللغات الأجنبية ، وكان يتسع  
هذا التأثير عند الشعراء الموالى بسبب ما كانوا يرتضخون من لُكُنات لغاتهم  
وما كانوا يستعبرونه أحياناً من ألفاظ تلك اللغات . وكان بعض الشعراء من  
العرب مثل الطرماح لا يرى بأساً في أن يعرَّب بعض ألفاظ النبط الآراميين أو  
بعض الألفاظ الفارسية ، وأخذ هو وغيره من العرب المتحضرين يبتعدون عن  
السليقة العربية بحكم نشأتهم في الحاضرة وبعدهم عن ينباع اللغة الحقيقية .

وندخل في العصر العباسي ، فإذا الشعراء جميعاً يتحضرون على شاكلة  
الطرماح والكميت ، ولقد كانا هما وأضرابهما في العصر الأموي شذوذاً بين جرير  
والفرزدق والأخطل وذى الرمة وأمثالهم ممن ملأوا العراق بأشعارهم ، صادرين  
فيها عن سليقة عربية سليمة وفطرة بدوية صحيحة . أما في العصر العباسي فقد  
تبدل الحال ، إذ أصبحت الكثرة الكثيرة من الشعراء تنشأ في المدن لا في البادية  
كما كان الشأن في زمن الأمويين ، وليس هذا فحسب فإن كفة الفرس رجحت  
على كفة العرب لافي شؤون الدولة والسياسة فقط بل أيضاً في الشؤون الأدبية والعقلية ،  
وبُنيت بغداد على حدود بلادهم وزخرت بسيلوم ، وأصبحنا في عصر جديد ليس  
للعرب فيه من سلطان ولا سيادة إلا سيادة الأسرة الحاكمة ، أما بعد ذلك فكل  
شيء للفرس .

غير أن هذا الانقلاب العنيف في الشؤون السياسية لم يصب اللغة العربية  
بسوء ، فإن الفرس لم يحاولوا استخدام لغتهم في شؤون الدولة الرسمية وكان كثير  
منهم قد تعرَّب ، بل قد تمكَّن من العربية حتى اتخذها لسانه في التعبير عن  
مشاعره وأفكاره ، وعدّها مثله الأعلى في البيان والبلاغة . وظلت الأجيال التالية  
تشعر هذا الشعور بقوة ، وكان من أهم ما دعمه أن العربية كانت لغة القرآن

(٢) المرشح ١٩١٠، ١٩٢٠، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩ .

(١) الأغاني ١٥/١٢٠ .

الكريم ، فكان الخروج عليها يُعدّ مروفاً من الإسلام ومحاولة لنقضه ، وبذلك ظلت العربية شاحنة في هذا المحيط الأعجمي حتى بين الزنادقة وأنصار الشعوبية فإنهم لم يستطيعوا غصاً منها ، بل ظلوا يتخذونهاهم ومن حسن إسلامهم مشكّتهم اللغوي والأدبي الرفيع .

وليس معنى هذا أن ملاحظناه في العصر الأموي من دخول الكلمات الأجنبية إلى الشعر العربي انحسرت ظلاله ، أو أن ضعف السليقة اللغوية انتهت آفاته ، أو أن اللكنات الأجنبية انحازت لشغاتها عن الألسنة ، فقد استمر ذلك كله بصورة أوسع من الصورة الأموية ، لسبب بسيط ، وهو أن أغلب الشعراء كانوا أجانب ، فكان فيهم النبطي مثل أبي العتاهية والسندي مثل هرون مولى الأزدي وأبي عطاء . أما الفرس فلا نستطيع إحصاءهم ، وكان منهم بشار بن برد وأبان بن عبد الحميد وسلم الخاسر ومروان بن أبي حفصة وأبو يعقوب الحرّيمي ومسلم بن الوليد وغيرهم كثير .

ولعل شيئاً لم يسترع الجاحظ في عصره كما استرعت اللكنات وما كانت تسببه من لثغات ، وقد أفاض في وصف هذه اللثغات أوائل كتابه البيان والتبيين ، فقال إنه كان هناك من يبدل الراء غينا واللام ياء والزاي والياء والشين سيناً والعين همزة والقاف كافاً والذال دالاً والجيم زاياً أو ذالاً . ويقول إن ذلك كله مصدره أن يُدخِل الرجل بعض حروف العجم في حروف العرب . ويقول إن واصل بن عطاء كان لا يستطيع أن ينطق الراء ، فأخلى كلامه منها . ويزعم أن من أصوات اللغات الأجنبية ما لا يستطيع الخط العربي تصويره كلهجة خوزستان ، ويقول : « قد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه متخيراً فاجراً ومعناه شريفاً كريماً ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي ، وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فإنك تعلم - مع إعرابه وتخير ألفاظه في مخرج كلامه - أنه خراساني ، وكذلك إن كان من كُتّاب الأهواز<sup>(١)</sup> . ولا بد أن أشياء من ذلك كانت تؤثر في لهجات بعض

(١) البيان والتبيين ١/٦٩ .

الشعراء على نحو ما روي ذلك عن أبي عطاء السندي ، إذ كان لا يكاد يفصح لارتضاعه لكثيرة قومه من السند، حتى كان كلامه إذا نطق به لا يكاد يفهم وذلك أنه كان ينطق الحاء هاء والعين همزة والصاد سينا والجيم زايا ويرقى الظاء حتى تشبه الزاي<sup>(١)</sup> مما اضطره إلى اتخاذ غلام ينشد شعره<sup>(٢)</sup> :

وأهم من ذلك أنهم أدخلوا في أشعارهم بعض ألفاظ من لغاتهم الأصلية ، وحقاً لم يتسع هذا الصنيع . ولكننا نجد عندهم أمثلة كثيرة لكلمات نبطية وفارسية كانوا يدخلونها في بعض ما ينظمون ، من ذلك قول إبراهيم الموصلي يصف وداعه لخمّار نبطي :

فقال : إزل بشين حين ودّ عني وقدّ لعمرُك زلننا عنه بالشينِـ

وإزل بشين كلمة سريانية معناها امض بسلام<sup>(٣)</sup> . ويقول إسحق الموصلي في قصيدة له يذكر مجالس لوه مع إسحق بن إبراهيم المصعبي ، وقد فرقت بينهما الأيام :

فيا لبت شعري هل أروحن مرةً إليه فيلقاني كما كان يلقاني  
 وهل أسمعن ذلك المزاح الذي به إذا جنته سلبتُ همي وأحزاني  
 إذا قال لي : « يامرّد مَيُّ خُر » وكرّها على وكنّاني مُزاحا بصفّوان  
 و « مردي خر » كلمة فارسية تفسيرها : يا رجل اشرب النبيذ<sup>(٤)</sup> . ويقول

والبة بن الحباب<sup>(٥)</sup> :

قد قابلتُنَا الكئوسُ ودابرْتُنَا النحوسُ  
 واليومُ هُرْمَزْدُ رُوِزٍ قد عظمتُه المجوسُ

وهرمزد تعريب لأهورامزد إله النور عند الفرس ، وروز معناها بالفارسية يوم ، يقول إن اليوم يوم هذا الإله وعيده ، فلنطرب ونشرب . ولعل شاعراً لم يُكثّر في شعره من الألفاظ الفارسية كما أكثر أبو نواس ، وخاصة حين يتعابث مع

(١) أغاني (طبعة السامي) ١٦/٨٠ ، ٨٤ .  
 (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٥/١٧٦ .  
 (٣) أغاني ٥/٣٣٧ .  
 (٤) أغاني ١٦/٧٩ ، ٨٣ .  
 (٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٨٨ .

بعض الغلمان من المجوس ، فيقسم عليه بألته وكهنة النار وبكل ما يقدّس من  
كواكب وبما يتلو من كتب زرادشت ، وفي رواية حمزة الأصفهاني لديوانه  
كثير من ذلك مثل قوله :

حماني وَصَلْ أَبْنَاءَ الْقَسُوسِ	نَجِيبُ الْفُرْسِ بِهَرُوزِ الْمَجُوسِ
مِنَ الْمُتْرَمِزِينَ لَدَى التَّغْدَى	يَعْدُبُ مَهْجَتِي بَيْنَ النُّفُوسِ
فَقَلْتُ وَنَحْنُ فِي وَجَلٍ شَدِيدِ	رَضِينَا مِنْ وَصَالِكَ بِالْحَسِيسِ
بِإِسْفَهَرٍ وَنَاهِيدٍ وَتِيرِ	وَحَقِّ الْمَاهِ وَالْمَهْرِ الرَّئِيسِ
وَحُرْمَةِ بَرَسْمِ التَّقْدِيسِ مِمَّا	يُزْمِزِمُهُ هُرَايْدُ أُسْطُنُوسِ
بِمَا تَتَلَسُّونَ فِي الْبِيسْتَاقِ رَمَزًا	كِتَابِ زَرْدُشِّ دَاعِيِ الْمَجُوسِ
لَمَّا كَلَّمْتَنِي وَرَدَدْتَ نَفْسِي	فَأِنِّي مِنْ جَفَائِكَ فِي رَسَائِسِ

والمترمزون: أصحاب الزمزمة ، وهي الأدعية التي يتلوها المجوس على الطعام  
والشراب ، وإسفهري : الفلك بالفارسية ، وناهيد : الزهرة ، وتير : عطارد ، وماه : القمر ،  
والمهر : الشمس ، وبرسم : أعواد يتلون عليها سوراً من كتبهم ويقدمونها ، والهرابند :  
كهنتهم ، وأسطنوس : معبد نار من معابدهم . والبستاقي هو كتاب زردش  
أوزرادشت معرب عن اسمه الفارسي أفستا . ومن ذلك قوله :

يَا غَاسِلَ الطَّرْجَهَارِ لِلخَنْدَرِيسِ العُفَارِ  
يَا نَرَجْسِي وَبِهَارِي بِدِهِ مَرَايَتِكَ بَارِي

والطرجهار : قدح شراب ، ومعنى الشطر الأخير : أعطني مرة واحدة .

ومما لا شك فيه أن الفارسية كانت منتشرة في أحاديث اللغة اليومية ، وكان  
بين العرب كثيرون يتقنونها مثل العتّابي التغلبي ، وكان منهم من يدخل بعض  
الفاظها في شعره على جهة التطرف ، يقول الجاحظ : « وقد يتملح الأعرابي  
بأن يدخل في شعره شيئاً من كلام الفارسية كقول العُماني للرشيد في قصيدته  
التي مدحه فيها :

من يَلْتَقِمَهُ من بطلٍ مُسْرَتَدٍ في زَغْفَةٍ محْكَمَةٍ بِالسَّرْدِ (١)  
تجول بين رأسه والكردِ

والكرد : العنق بالفارسية . ومنها يقول أيضاً :

لما هوى بين غياض الأسد وصار في كف الهيزبِ الروردِ (٢)  
آلى يذوق الدهر آب سَرْدٍ

وآب سرد : الماء البارد بالفارسية . يقول الجاحظ ومثل هذا موجود في شعر  
أبي العُدافر الكندي وغيره . . . وأسود بن أبي كريمة ، ويسوق له قوله :

لسزم الغُرَامُ ثوبِي بُكْرَةً في يوم سَبَتِ  
فتمايلتُ عليهم مثل زنجي بمَسَمَتِ  
قد حسماً الدَّاذِيَّ صرفاً أو عقاراً يا يَحْسَتِ (٣)

والمست : السكر وإدمان الشراب ، والداذي : ضرب من الشراب ،  
والعقار : الخمر ، ويايحست : موطوءة بالأقدام . وتستمر المقطوعة على هذا  
النحو تختلط فيها الألفاظ العربية بالفارسية .

ومن غير شك كان دخول هذه الكلمات الأعجمية في الشعر العباسي  
أوسع منه في الشعر الأموي ، غير أن ذلك ظل في حدود ضيقة ، وظل الشعراء  
يصنعونه على سبيل التطرف والتلمح . وإذا كنا لاحظنا قبلاً أن الكميت  
والطرماح نقصهما السليقة اللغوية فنن المحقق أن جمهور الشعراء في هذا العصر  
كانت تنقصه تلك السليقة مما هيئاً لظهور الاغن والحروج أحياناً على القياس  
الصرفي . وكان علماء اللغة لهم بالمرصاد ، فكلما انحرفوا دلُّوهم على انحرفهم  
ويُفَيض كتاب الموشح للمرزباني في مآخذ هؤلاء العلماء عليهم ، وكانوا يرهبونهم  
رهبة شديدة ، حتى كان فريق منهم يعرض عليهم أشعاره قبل إذاعتها (٤) . وكان

(١) مسرد : يظفر بعنوة ويعلو عليه ،  
زغفة : درع سابعة ، أسرد : سمر الرورد .  
(٢) الهزير : الأسد ، والرورد : القوي  
الجرى ،  
(٣) البيان والتبيين ١/١٤١ وما بعدها .  
(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٠/٨١ ،  
٨٢ وانظر (طبعة السامى) ١٣/٢٢ و  
١٦/١٧ .

فريق آخر يعتدّ بسلامة ذوقه ، ويحمل عليهم ويهجوهم هجاءً مرّاً<sup>(١)</sup>.

والحق أن هؤلاء العلماء كانوا حُرّاساً أمناء على العربية ، وضعوا قواعدها ودقائقها ، وجمعوا شعرها القديم ، واتخذوه مثلاً أعلى للفصاحة والبيان ، وظلوا يذودون عنها ذيادةً قوياً متعصبين للجاهليين تعصباً شديداً ، فهم الشعراء حقاً وغيرهم عالة عليهم ، بل لقد أهدروا شاعرية معاصريهم ولم يجعلوا لشعرهم حُرمة ولا فضلاً ، إن قالوا حسناً فقد سبقوا إليه وإن قالوا قبيحاً فن عندهم<sup>(٢)</sup> ، ومنعوا الاحتجاج بشعرهم فهم لا يحتجون في مسائلهم النحوية واللغوية إلا بعرب البادية . وارجع إلى كتاب سيبويه ، عمدة النحو والنحاة ، فستجده دائماً ينقل عن فصحاء العرب ومن تُرضى عربيتهم ولا يسوق شاهدها لشاعر محدث . وقد ظلوا يرحلون إليهم ، ويأخذون عنهم شفاها شواهدهم وأمثلتهم ، وفي الوقت نفسه أخذ كثير من عرب البادية يرحلون إلى الكوفة والبصرة وبغداد ليعرضوا تجارتهم اللغوية التي كان يروّجها هؤلاء العلماء ، كما كان يروّجها الخلفاء وكبار رجال الدولة .

وبذلك ظلت النماذج البدوية حية في تلك الحقب التي تطور فيها الشعر في مدن العراق بتأثير العلاقات الاجتماعية والحضارية النامية ، فقد نصب اللغويون تلك النماذج مثلاً أعلى للشعر الفصيح ، وروّجوا لها في البلاط ومجالس الوزراء . وبذلك أصبح هناك ضربان واضحان من الشعر : ضرب بدوي يتمسك بالتقاليد القديمة ، وضرب حضارى ينفك قليلاً أو كثيراً عن تلك التقاليد حتى يساير العصر .

وأخذ أصحاب الضرب الأول يُكثرون في شعرهم من الغريب ، حتى يجد فيه اللغويون ما يسد حاجتهم في البحث والدراسة من الشواهد والأمثال ، وكانوا يؤلفونه غالباً من الرجز ، على نحو ما هو معروف عن أبي نُخَيْلَةَ والعُمَاني ورُوْبَةَ وابنه عُقْبَةَ . وكانوا يُدِلُّون بنماذجهم تلك على شعراء المدن ، فبعثوا فيهم

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢١٠/٣ (٢) أغاني (طبعة السامى) ١٠٩/١٦ .  
وديوان أبي نواس ١٧٥ - ١٧٦ .

نزعة إلى تقليدهم في ذلك الميدان حتى يثبتوا لهم وللغويين أنهم يتفوقون عليهم ، حتى في تلك الصناعة البدوية المسرفة في البداوة . روى صاحب الأغاني أن بشاراً دخل على عُنُقبة بن سَلَم ( والى البصرة ) فأنشدته بعض مدائحه فيه ، وعنده عقبة بن رُوَبة ينشده رجزاً يمدحه به ، فسمعه بشار ، وجعل يستحسن ما قاله إلى أن فرغ . فأقبل على بشار ، فقال : هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ، فقال له بشار : ألى يقال هذا ؟ أنا والله أرجز منك ومن أهلك وجدك ( يقصد العَجَّاج ) فقال له عقبة : أنا والله وأبى فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز ، والله إني لخليق أن أسدّه عليهم ، فقال بشار : ارحمهم رحمك الله ، فقال عقبة : أتستخفُّ بي يا أبا معاذ وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر؟ فقال له بشار : فأنت إذن من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجسَ وطَهَّرهم تطهيراً . ثم خرج من عند عقبة ( بن سلم ) مُغَضَّباً ، فلما كان من غَدٍ غَدَاً على عقبة ، وعنده عقبة بن رُوَبة ، فأنشدته أرجوزته التي يمدحه فيها :

يا طلل الحى بذات الصمدِ بالله خبيرٌ كيف كنت بعدى »

ومضى يَرَجُزُ ويتكلف للغريب يمزجه بشيء من الحضارة ودقة الحس والفكر وجمال الصياغة. فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلته وانكسر عقبة بن رُوَبة انكساراً شديداً<sup>(١)</sup> ، وليس بشار وحده الذى أثبت أنه يستطيع التفوق على شعراء البادية في أرجازهم المملوءة بالغريب ، فقد تبعه أبو نواس يحاول أن يهزمهم هزيمة ساحقة في هذا الميدان، وكان أبو نُخَيْلة قد سبقه إلى صنع أرجاز كثيرة في الطرد وانقضى<sup>(٢)</sup> ، يصف فيها الصيد والكلاب والوحش وحيوان الصحراء على طريقة القدماء ، فصنع على مثال طردياته طرديات جديدة أظهر فيها براعة وتفوقاً منقطع النظير ، حتى ليقول الجاحظ في تقديمه لطائفة منها : « وأنا كتبت لك رَجَزَ أبي نواس في هذا الباب لأنه كان عالماً راوية . . وصفات الكلاب ، مستقصاة في أرجازيه ، هذا مع

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٧٤/٣ وما بعدها .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز عن ٦٦ .

وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٥

جودة الطبع وجودة السبك والحدق بالصنعة ، وإن تأملت شعره فضلتها ، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أبدأ أشعر وأن المولدين لا يقارونهم في شيء ، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً<sup>(١)</sup> .

وعلى هذا النحو زحم شعراء البصرة والكوفة وبغداد شعراء البادية في نماذجهم من الأراجيز المحشوة بالألفاظ الغريبة وأثبتوا أنهم يبيزونهم ، حتى في تلك النماذج الخاصة . ولعل في هذا ما يدل — من بعض الوجوه — على مدى ما كان يأخذ به الشاعر الحضري في تلك الأزمان نفسه من التقف ثقافة عميقة بالشعر العربي الموروث واللغة العربية الصحيحة ، يأخذها عن أهلها بالمربي فيهم ، والرحلة إلى بواديهم ، فهم يروون أن بشارا كان يقول : « من أين يأتي الخطأ ، وكُدت ها هنا ( في البصرة ) ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عَقِيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت على نسايتهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأبغيت فأبديت ( دخلت البادية ) إلى أن أدركت ، فن أين يأتي الخطأ<sup>(٢)</sup> » أما أبو نواس فقد خرج إلى البادية وأقام فيها حولا كاملا ليشتقف باللغة من منابعها الحقيقية<sup>(٣)</sup> . ويقول الجاحظ عنه : « ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراه<sup>(٤)</sup> » ويقولون إنه « كان يحفظ سبعمائة أرجوزة غير ما حفظه من قصائد الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وأوائل المحدثين<sup>(٥)</sup> » ، وقال أبو عمرو الشيباني : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرقش لاحتججتنا بشعره ، لأنه محكم القول<sup>(٦)</sup> »

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على مبلغ ما كان يأخذ به بعض الشعراء

- |                                    |                                       |
|------------------------------------|---------------------------------------|
| (١) الحيوان ٢٧/٢ وما بعدها .       | (٤) أخبار أبي نواس ص ٦ .              |
| (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٩/٣   | (٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٤ . |
| وما بعدها .                        | (٦) نفس المصدر ص ٢٠١ .                |
| (٣) أخبار أبي نواس لابن منظور (طبع | (٧) نفس المصدر ص ٢٠٢ .                |
| مصر) ص ١٢ .                        |                                       |

الخصريين العباسيين أنفسهم من التثقف باللغة والشعر القديم، حتى استحالت إليهم السليقة العربية ووقفوا على طريقة القوم في التعبير والصيغة وقوفاً دقيقاً. روى صاحب الأغاني أن بشاراً أنشد خلتاً الأحمر قصيدته :

بَكَرًا صَاحِبِيَّ قَبْلَ الْمَهْجَبِ إِنْ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان إن ذاك النجاح في التبكير ( بكرًا فالنجاح في التبكير ) كان أحسن ، فقال له بشار : بَنَيْتُهَا أَعْرَابِيَّةً وَحَشِيَّةً فَقُلْتُ : إِنْ ذَاكَ النَّجَاحَ كَمَا يَقُولُ الْأَعْرَابُ الْبَدَوِيُّونَ ، وَلَوْ قُلْتُ : ( بكرًا فالنجاح في التبكير ) كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة ، فقام خلف فقبل بين عينيه (١) « ولكن هل معنى ذلك حقاً أن المولدين لم يتطوروا بأسلوبهم ؟ الحق أنهم تطوروا به تطوراً واسعاً ، حتى أصبح هناك في وضوح أسلوبان : أسلوب للقدماء ، وأسلوب للمولدين العباسيين ، ولسنا نقصد أن هؤلاء المولدين كان يجري على ألسنتهم شيء من اللحن في التصريف أو في الإعراب مما سجله المرزباني في الموشح نقلاً عن علماء اللغة من معاصريهم (٢) وما جعل السيد الحميري يقول عن شعره (٣) :

أَحْوَكُ وَلَا أَقْوَى وَلَسْتُ بِلَا حَنٍْ وَكَمْ قَاتِلٍ لِلشَّعْرِ يُقْوِي وَيَلْحَنُ

وأيضاً لسنا نقصد ما كان يجري على ألسنتهم من تلمح وتظرف بمشدد بعض الألفاظ الفارسية في أشعارهم ، وخاصة عند شعراء الجيل العباسي الثاني من مثل أبي نواس ، وإنما نقصد أنهم على الرغم من تقيدهم بكثير من تقاليد القدماء ولا سيما في شعر المديح الرسمي وصناعة الأراجيز استطاعوا أن ينفذوا إلى لغة شفاقة مبسطة تقف بين الإعراب والابتدال ، فهي لا ترتفع إلى شعر أمثال رؤبة وابنه عتبة وأبي نخلية ، وهي لا تسقط إلى كلام العامة ، يدعمها ذوق سليم يعرف كيف يختار من العبارات أجملها صياغة وسبكاً ، وكيف ينوع في معانيه ، فلا يقف

أبي نواس .

(١) أغاني ١٩٠/٣ .

(٢) المرشح ص ١٤ .

(٣) انظر على سبيل المثال ما كتبه عن

بها عند المعاني الموروثة بل يضيف معاني جديدة ، وفي الوقت نفسه يولد من المعاني والصور القديمة ما يروع . وبذلك استقام هذا الأسلوب المولد الجديد الذي يأخذ من القديم ، ويعرض ما يأخذ عرضاً خلاباً ، ولا ينسى حقوق عصره ولا ما بَسَطَ له من الفكر والخيال ، وأيضاً فإنه لا ينسى حقوق هذا العصر في البعد عن الكلام الوحشي الغريب والكلام السوقي المتبدل . فهو أسلوب مرن ، فيه سلاسة ومهولة ووضوح ، وفيه رشاقة وعدوبة ، أسلوب لا يتوعر ولا يسلم إلى تعقيد يفسده ويهجنه ، معانيه ظاهرة مكشوفة وألفاظه لا تلتطف عن العامة ولا تجفو عن الخاصة ، مع أناقة التعبير ودقة الحس والذوق . وأخذ هذا الأسلوب المولّد الجديد يفرض سلطانه على الشعر والشعراء ، ولم يستطع اللغويون أن يقفوا عائقاً دون هذا السلطان ، فإنه على الرغم من معارضتهم له ذاع وانتشر ، ولا نصل إلى القرن الثالث حتى يصبح المثل الرفيع الذي يحتديه كل الشعراء .

## ٣

## العلاقات الثقافية

رأينا في غير هذا الموضع أن العرب أخذوا منذ الفتوح الإسلامية يحاولون التعرف على ثقافات الأجانب ومعارفهم ، إذ كانوا ناشرين للدين الإسلامي واصطدموا بيهود ونصارى ومجوس ودهرية يناقشونهم وينظرونهم في مسائل الدين ، ورأوا عندهم من أساليب النظر والاستدلال ما دفعهم إلى معرفة تلك الأساليب وما كانت تتأثر به من آراء فلسفية . وأيضاً فإن المولى أقبلا على الإسلام ، وكانوا من أجناس مختلفة ، منهم الفارس والهندي والشامي والمصري ، والعراقي ، وأخذوا ينشرون بين العرب ما عرفوا في لغاتهم الأصلية من ثقافات ومن معارف ونزعات . وكانت هناك مدارس ودوائر علمية في جند يسابور وفي الرها ونصيبين وحرّان وفي قيسرين وأنطاكية وفي الإسكندرية ، وتسرب كثير مما كان يدور في تلك المدارس إلى الأديرة .

فلما وضع العرب أيديهم على تلك البيئات كلها أخذ كثير مما فيها من ثقافة يتحول إليهم بحكم ما كان يقتضيه دفاعهم عن دينهم وبحكم ما أصاب حياتهم من تطور ، فقد أصبحوا أصحاب دولة متحضرة ، تحتاج إلى كثير من العلوم التطبيقية النفعية، وأخذت الأمم المجاورة لهم تدخّل في دينهم وتدخل معها معارفها وكل ما ورثته من الثقافة الهيلينية التي انتشرت في الشرق منذ فتوح الإسكندر ، وكانت مزيجاً من فلسفة اليونان ومن ديانات الشرق وحكمته ، ولانصل إلى العصر العباسي ، حتى تنظّم الترجمة ، ويُقبَل السريان على نقل كل ما شاع بينهم وفي مدارسهم بالعراق وجنديسابور من معرفة وعلم وفلسفة ، كما يقبل الفرس والهنود أيضاً على نقل كثير من تراثهم .

وعنى المنصور بهذه الحركة من الترجمة ، فجلب من جُنْدِيسَابُور آلَ بختيشوع الأطباء المشهورين ، فشاركوا تَوّاً في الترجمة ، ووفد عليه من الهند « منكه » وكان قيماً بالحساب المعروف « بالسند هند » في حركات الفلك والنجوم ، فأمره بترجمته ، وشاركه في هذه الترجمة إبراهيم الفزاري يعاونه جماعة من العلماء . وعهد المنصور أيضاً إلى أبي يحيى البطريق ترجمة أجزاء من كتب بقراط وجالينوس في الطب . ونحن لا ننسى رأس هؤلاء المترجمين جميعاً ابن المقفع الذي ترجم عن الفارسية بعض الكتب التاريخية والسياسية والأدبية ، كما ترجم أجزاء من منطق أرسطو وكتاب كليلة ودمنة الذي يرجع إلى أصول هندية. وأيضاً فإنه ترجم كتاباً عن مزدك ، أحد دعاة الفرس الدينيين ، ويظهر أنه أدخل كثيراً من تعاليم المجوسية . ومما لا ريب فيه أن كتاب زرادشت المسمى أفتسا تُرجم في أوائل هذا العصر كما ترجمت كتب ماني ، مما كان سبباً في ارتفاع موجة الزندقة . وكان هناك فرس كثيرون خلفوا ابن المقفع على ترجمة التراث الفارسي من أهمهم آل نوبخت .

ونعني إلى عصر الرشيد ، فُيُنشئُ خزانة الحكمة وإدارة للترجمة يقيم يوحنا بن ماسويه أميناً عليها ويرتب له كما يقول القفطي كتاباً حاقلين يكتبون بين

يديه<sup>(١)</sup>، ومما تُرجم في عصره كتاب المجسطى في الجغرافيا لبطليموس الإسكندري. ونشط البرامكة في تشجيع هذه الحركة، سواء عن لغتهم الفارسية أو عن اللغات الأخرى، ويقال إن يحيى بن خالد جلب مجموعة من أطباء الهند وأمرهم بنقل بعض كتب قومهم في الطب<sup>(٢)</sup>، ودخل من ثقافة الهند كثير من الأفكار إلى محيط العربية، من ذلك صحيفة في البلاغة يحتفظ بها الجاحظ في بيانه<sup>(٣)</sup>، وأيضاً فقد دخلت بعض مذاهبهم الدهرية مثل السُّمَنِيَّة<sup>(٤)</sup>، كما دخل كثير من حكمهم ومن تأملاتهم الزاهدة المتصوفة، مما كان له أثره في الصوفية الإسلامية.

وكلما مضينا في العصر وجدنا موجة هذه الترجمة تزداد حدة، فقد شجع المأمون عليها تشجيعاً واسعاً وأرسل في طلب الكتب من بلاد الروم، وجعل خزانة الحكمة مجعلاً لطائفة من كبار المترجمين أمثال سهل بن هرون ومحمد بن موسى الخوارزمي وسلم ويحيى بن منصور وبنو شاكر: محمد وأحمد والحسن، وعهد بإدارة الترجمة إلى حنين بن إسحق، ولم يلبث الكندي فيلسوف العرب الأول أن ظهر ثمرة لكل هذه الحركة المباركة.

ومن المؤكد أن المسألة كانت أوسع من تلك الأخبار التي تساق لنا عن الخلفاء واهتمامهم بالترجمة، فقد كان هذا الاهتمام عاماً بين أفراد المجتمعات في البصرة والكوفة وبغداد، بدليل أننا نجد العلوم الإسلامية توضع قواعدها وأصولها في هذا العصر وضعاً يدلُّ على أن أصحابها كانوا يقفون على أساليب البحث عند اليونان وغيرهم. ويكفي أن نشير هنا إلى علم الكلام والموضوعات التي أثارها المتكلمون، مما حكاها لنا الجاحظ في كتابه الحيوان عن أبي الهذيل العلاف والنظام وأضرابهما، فإننا نرى أمامنا عقولا كبيرة، اطلعت اطلاعاً واسعاً على علوم الأوائل، واستطاعت أن تنفذ منها إلى فكر عربي متوهج بالثقافات المنقولة

(١) أخبار الحكماء للقفطي (طبع مطبعة السادة) ص ٢٤٨ وما بعدها وانظر طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل (طبع المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة) ص ٦٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٤) أغاني ٣/١٤٧ .

ومسائلها المختلفة ، وحتى علم اللغة والنحو لم يخلوا من أثر هذه الثقافات وطرائقها ومناهجها في النظر وبحث المشاكل ، وصلة النحو بالمنطق اليوناني مقرر ، وقد وضع الخليل معجماً للعربية بترتيب مخارج الحروف متأثراً بالهنود في ترتيب حروف لغتهم ، وهياتته معرفته بعلم الموسيقى لوضع عروض الشعر العربي وأوزانه . وطبيعي أن يكون لهذه العلاقات الثقافية الجديدة التي عملت عملاً نافذاً في عقلية العباسيين أثرها الواسع في شعرائهم ، فإنهم لم يكونوا بعيدين عنها ، بل كانوا يتصلون بها اتصالاً وثيقاً . وإذا كنا لاحظنا قبلاً صلتهم بالزندقة الفارسية فإن صلتهم بالمحتويات الأخرى للثقافات الأجنبية لم تكن تقل عن صلتهم بالزندقة ، ومر بنا أن ديوان صالح بن عبد القدوس كان يشتمل على ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم ، ونراهم يروون عن العتّابي التغلبي أنه كان يتقن الفارسية وأنه رحل إلى « مرو » ، فكتبَ كُتَبَ العجم ، ولما سئل في ذلك قال : « وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة ، اللغة لنا ، والمعاني لهم »<sup>(١)</sup> . ومن يرجع إلى ترجمته في كتاب الأغاني يجد له ضرباً من الشعر القصير الذي يشبه الأمثال كقوله في مديح عبد الله بن طاهر<sup>(٢)</sup> :

ودُّك بكفينيك في حاجتي ورؤيتي كافية عن سؤال  
وكيف أحشى الفقر ما عشتل وإنما كفّاك لي بيت مال

وقوله في مديح جعفر بن يحيى البرمكي<sup>(٣)</sup> :

ما زلت في غمرات الموت مطرَحاً قد ضاق عني فسيح الأرض من حبيلي  
ولم تنزل دائباً تسعي بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

وقوله<sup>(٤)</sup> :

هَيْبَةُ الإخْوان قاطعةٌ لأخي الحاجات عن طلبه  
فإذا ما هبتَ ذا أملٍ مات ما أمّلتَ من سببه

(٣) أغاني ١١٩/١٣

(٤) أغاني ١١٦/١٣

(١) الجزء السادس من تاريخ بغداد لطيفور

ص ١٥٧ وما بعدها .

(٢) أغاني ( طبعة دار الكتب ) ١١٧/١٣

وأكبر الظن أن العتّابي كان يتأثر في هذه القطع القصيرة معاني فارسية ، وكان يتأثر هذه المعاني أبناءُ الفرس أنفسهم ، فهم أصحابها ، وهي كنوز كانت ملقاة تحت أعينهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الهجاء القصير الذي شاع عند بشار بن برد وحماد عَجْرَد وأضربهما ، إنما نشأ من هذا التأثر بمعاني الفرس وأمثالهم ، وكان بشار خاصة يكثر من الأمثال والحكم في شعره. ويدخلُ في هذا الجانب ما تسرب إلى الشعر من أخيلة فارسية ، كقول بعض الشعراء<sup>(١)</sup> :

لو لم تكن نِيَّةُ الجَوْزَاءِ خِدْمَتَهُ  
لما رأيتَ عليها عِقْدَ مُنْتَشِطِقِ  
ويقال إن شاعراً قرأ قول كسرى في وصف النرجس إنه : « يا قوت أصفر  
بين درأبيض على زمرد أخضر » فقال وزاد عليه :

وياقوتة صفراء في رأس دُرَّةٍ      مركّبة في قائمٍ من زَبْرَجَدٍ  
كأن بقايا الطلّ في جَسَنَاتِهَا      بقية دَمْعٍ فوق خَدِّ مَوْرَدٍ<sup>(٢)</sup>

وعلى نحو ما كانت العلاقات قائمة بين الشعراء والثقافة الفارسية كذلك كانت قائمة بينهم وبين الثقافة الهندية ، فقد كانوا يعرفون ما نُقل عنها في الفلك وغير الفلك وقد تسرب إليهم كثير من آراء المنود وأفكارهم وقصصهم كقصّة بوذا الملك الذي هجر ملكه ، وساح في الأرض عابداً لربه ، فقد اتخذ منه أبو العتاهية مثالا للرجل الفاضل فقال<sup>(٣)</sup> :

يا من تشرف بالدينيا وزينتها      ليس التشرفُ رَفَعَ الطينِ بالطينِ  
إذا أردتَ شريف الناس كلهمِ      فانظرُ إلى ملكٍ في زيّ مسكينِ  
ونقل إليهم ما تزعمه الهند في علم الطبائع من أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً ، وعرف ذلك أبو نواس ، فقال<sup>(٤)</sup> :

قل لزهير إذا حدّأ وشدّأ      أقللٍ وأكثرُ فأنت مهذارُ  
سَخُنْتَ من شدة البرودة حدّ      صرتَ عندي كأنك النار

(٤) الشعر والشعراء ص ٥٠٦ وانظر عيون

الأخبار ٧/٢ .

(١) معاهد التنصيص ١٥/٢ .

(٢) زهر الآداب ٢٠٩/٢ وانظر ٢١١/٢

(٣) ديوان أبي العتاهية ص ٢٧٤ .

لا يعجب السامعون من صفى كذلك الثلج بارد حار  
ومما تأثر فيه ببعض آراء الهند قوله :

تُخَيَّرَتِ وَالنَّجُومُ وَقُفَّتْ      لم يتمكن بها المدارُ

وهو يشير بذلك إلى بعض ما نُقل عنهم من أن « الخمر تخيَّرت حين طق الله الفلك، وأصحابُ الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعاً واقعة في برج، ثم سَيرها من هناك . وأنهم تزل بجارية حتى تجتمع في لك البرج الذي ابتدأها منه ، وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم . الهند تقول إنه في زمان نوح اجتمعت في الحوت إلا يسيراً منها فهلك الخلق الطوفان، وبقى منهم بقدر ما بقي منها خارجاً عن الحوت<sup>(١)</sup> . وربما كان أهم ما أثرت ه الهند في المجال الشعري العام ما انتشر في كتاب كليلة ودمنة من حكم وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية ابنُ المقفع ثم نظمه أبان بن عبد الحميد للبرامية شعراً، يحتفظ كتابُ الأوراق للصولي بقطع طويلة من هذا النظم الذي يستهله بقوله :

هذا كتابُ أدبٍ ومحبته      وهو الذي يُدعى كليله دمنه  
فيه دلالاتٌ وفيه رَشْدٌ      وهو كتابٌ وضعته الهندُ  
فوصفوا آدابَ كلِّ عالمٍ      حكايةً عن ألسنِ البهائمِ

وإذا تركنا الثقافتين الهندية والفارسية إلى الثقافة اليونانية وجدنا علاقتها الشعر والشعراء تفوق علاقتي تلك الثقافتين . وحقاً أنهم لم يعرفوا شيئاً عن الشعر يوناني . إذ اقتصر معرفتهم بالثقافة اليونانية على الفلسفة والمنطق، ولكن هذه المعرفة نادوا منها فوائد جليَّة ، فقد دعم المنطق تفكيرهم ووسعت الفلسفة دوائره ، نصيغ عقل الشعراء بأصباغ من العمق والدقة والتحليل وطرافة التقسيم والبعث ، الخيال والتجريد فيه . وكان المتكلمون أهمَّ من أذاع هذه الثقافة في محيط شعر والشعراء ، إذ كانوا يتأثرون بها تأثراً واسعاً في جدالهم وأساليب استدلالهم ، كتبوا عليها يقرءونها ، وينقلون مصطلحاتها ، ويفسرون معانيها من مثل الطَّفْرة

والحركة والسكون والتولد والكمون والجوهر والعرض والجوهر الفرد . وكان كثير من الشعراء يستمع إليهم ، بل لقد وُسمَ غير شاعر بالكلام والاعتزال . وأنه يستمد منهما في موازنة الشيء بالشيء وفي الجدل والمغالطة ، كما يستمد منهما في استنباط المعاني الخفية والأفكار الدقيقة . وقد بدأ بشار حياته متصلاً بالمتكلمين وبالمعتزلة منهم خاصة ، إذ كان يصحب واصل بن عطاء<sup>(١)</sup> وما زال قريباً منه ، حتى أظهر ثنويته وزندقته ، ففسد ما بينهما ونادى واصل في الناس أن يقتلوه ، ففرَّ عن البصرة ، وذهب يعلن أنه لا يؤمن بواصل ومذهبه في القدر ، إنما يؤمن بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة في الحياة ، يقول :

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِيَّ غَيْرَ مَخِيَّرٍ      هَوَىٰ وَلَوْ خَيْرٌ رُكِنْتُ الْمَهْدِيَّ  
أُرِيدُ فَلَا أُعْطَىٰ وَأُعْطَىٰ وَلَمْ أُرِدْ      وَقَصَّرَ عَلَيَّ أَنْ أَنَالَ الْمَغْيِبِيَّ  
فَأَصْرَفُ عَنْ قَصْدِي وَعَلَىٰ مَقْصَرٍ      وَأَمْسَىٰ وَمَا أَعْقَبْتُ إِلَّا التَّعْجِبِيَّ

وكان يكثر من الحجاج والجدال في ذلك ويقول : ما أومن إلا بالحيس وما عاينته<sup>(٢)</sup> . وتحول بهذا الجدال وما يطوى فيه من قدرة على الاستدلال إلى شعره ومعانيه ، فكان يكثر فيه من استنباط الأدلة وحشد البراهين على شاكلة قوله<sup>(٣)</sup> :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِينْ      بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةِ حَازِمٍ  
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَىٰ عَلَيْكَ غَضَاضَةً      فَإِنَّ الْخَوَافِيَّ قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ<sup>(٤)</sup>  
وَمَا خَيْرٌ كَفَّ أَمْسَكَ الْعُغْلُ أَخْتَهَا      وَمَا خَيْرٌ سَيْفٍ لَمْ يُؤْبَدَ بِقَاسِمِ<sup>(٥)</sup>

وقوله<sup>(٦)</sup> :

إِذَا كُنْتُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مَعَاتِبًا      صَدِيقَتِكَ لَمْ تَلَقِ الَّذِي لَا تَعَاتِبُهُ

(١) انظر الأغاني ١٥٢/٣ .

(٢) أغاني ٢٢٧/٣ .

(٣) أغاني ١٥٧/٣ .

(٤) القوادم : الريش في أعلى الجناح ،

والخوافي : الريش الصنبر الذي يتخفق حين

يضم الظائر جناحيه .

(٥) الغل : الحديد التي تجمع بين يد الأسير

وعنقه ، وقائم السيف : مقبضه .

(٦) أغاني ١٩٧/٣ .

فَعِيشٌ وَاحِدًا أَوْصِلَ أَخَاكَ فَإِنَّهُ      مقارِفُ ذَنْبِ مَسْرَةٍ وَمِجَانِبِهِ (١)  
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مَرَارًا عَلَى الْقَدَى      ظَمَمْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مِشَارِبَهُ

وما نشك في أن كثرة هذه الأدلة في شعره جاءت من بيئة المتكلمين وما كانت تعتمد عليه في جدالها من أقيسة المنطق والترتيب لمقدماتها الصحيحة واندفع يستنبط كثيراً من دقائق المعاني ولطائف الفكر كقوله في بعض ممدوحيه (٢) :

لَيْسَ يَعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلَا الْخَوْ      فِي وَلَكِنْ يَلْتَمِدُ طَعْمَ الْعَطَاءِ  
فَإِنَّكَ تَرَاهُ يَفْكَرُ تَفْكَيرًا جَدِيدًا، إِذْ يَجْعَلُ الْعَطَاءَ بَدُونَ غَايَةٍ خَارِجَةٍ عَنْ نَفْسِهِ،  
وَهِيَ فِكْرَةٌ لَمْ تَكُنْ تَقَعُ فِي عَقْلِ الشَّاعِرِ الْقَدِيمِ، إِنَّمَا تَقَعُ فِي عَقْلِ الشَّاعِرِ الْعَبَّاسِيِّ  
الْجَدِيدِ الَّذِي لَا يَزَالُ يَغْرُقُ فِي التَّفْكِيرِ حَتَّى يَتَصَوَّرَ الْأَشْيَاءَ مَجْرَدَةً عَنْ غَايَاتِهَا،  
وَإِذَا كَانَ الْمُتَكَلِّمُونَ اشْتَهَرُوا بِمِغَالِطَاتِهِمْ أَوْ بِنَاتِيهِمْ لِتَعْلِيلَاتِهِمْ أَوْ كَمَا يَقُولُ  
الْبَلَاغِيُونَ بِحَسَنِ التَّعْلِيلِ فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ ذَلِكَ أَصْبَاغًا كَثِيرَةً فِي شِعْرِ بِشَارِ كَتْعَلِيهِ  
لَأَفَنَّهُ بِقَوْلِهِ (٣) :

عَمِيَّتُ جَنِينًا وَالذِّكَاءُ مِنَ الْعَمَى      فَجِئْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْثَلًا  
وقوله في جارية سوداء (٤) :

وَعَادَةَ سَوْدَاءَ بَرَّاقَةَ      كَالْمَاءِ فِي طَيْبٍ وَفِي لَيْلِ  
كَأَمَّا صِيغَتْ لِمَنْ نَالَهَا      مِنْ عَسِيرٍ بِالْمَسْكِ مَجُونِ

وقوله في بعض ممدوحيه - إن صحَّ أنه له - (٥) :

لَمَسْتُ بِكَفِي كَفَّهُ أَبْتغَى الْعَيْبِ      وَلَمْ أَدْرَأَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي  
فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُوو الْعَيْبِ      أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

وتكثر هذه التعليلات في شعر بشار كما تكثر معها الموازنة والتقسيمات والبعث

في التأويل واستخراج المعاني ، على شاكلة قوله (٦) :

- |                      |                           |
|----------------------|---------------------------|
| (١) مقارِف : مرتكب . | (٤) أغاني ٣/١٩٣ .         |
| (٢) أغاني ٣/١٨٩ .    | (٥) أغاني ٣/١٥٠ .         |
| (٣) أغاني ٣/١٤٢ .    | (٦) البيان والتبيين ٤/١ . |

وعِيُّ الصَّعَالِ كَعَمِيَّ الْمَقَالِ . وفي الصمت عَيٌّْ كَعَمِيَّ الْكَلِيمِ .  
وأنت تراه لا يَخِصُّصُ الْعَمِيَّ بِالْكَلامِ . بل يجعله في الفعل ، بل هو يذهب  
إلى أبعد من ذلك ، فيقيم في الصمت عَيًّْا كَعَمِيَّ الْكَلَامِ ، فإذا عَمِيَ على أقسام :  
عَمِيَ الصمت وعَمِيَ الفعل وعَمِيَ المقال . وأكبر الظن أن هذا التقسيم الطريف  
هو الذي ألمَّ به الجاحظ رسالته في تفضيل الكلام على الصمت وخروجه عما  
ألّفه الناس في أمثالهم .

وإذا تركنا بشاراً وجيله إلى الجيل التالي الذي خلفه وجدنا أبا نواس الشاعر على  
التقاليد والأوضاع خير من يمثله ، وكان كثير الاختلاف إلى مجالس المتكلمين ،  
ولاحظ الجاحظ في بيانه أنه استعار كثيراً من ألفاظهم ومصطلحاتهم على وجه  
التظرف والتلمح كقوله في جنان<sup>(١)</sup> :

وذات خَدَّ مُورَدٌ	قوهيَّة المتجرَّد <sup>(٢)</sup>
تأملُ العَيْنُ مِنْهَا	محاسناً ليس تنفدُ
فبعضُها قد « تناهى »	وبعضها « يتولّد »
والحسنُ في كلِّ عضوٍ	منها معادٌ مردّدٌ

وقوله :

يا عاقدَ القلبِ عني	هلاًّ تذكرت حلاًّ
تركتَ مني قليلاً	من القليل أقلياً
يكساد لا يتجزأ	أقل في اللفظ من لا

ويُروى أن النظم سمع منه الأبيات الأخيرة فقال له : « أنت أشعر الناس  
في هذا المعنى ، والجزء الذي لا يتجزأ مذ دهرنا الأطول نخوض فيه ما خرج فيه  
لنا من القول ما جمعته أنت فيه في بيت واحد<sup>(٣)</sup> » . ولم يكن أبو نواس يهيج يهيج  
المتكلمين في ذكر مصطلحاتهم فحسب ، بل كان يهيج يهيجهم أيضاً في

(٢) قوهية : أراد بيضاء ، والقوهى :  
ضرب من الثياب البيضاء .  
(٣) أخبار أبي نواس ص ١٣ .

(١) البيان والتبيين ١/١٤١ وانظر أخبار  
أبي نواس ص ١٣ حيث ساق ابن منظور له  
طائفة من معاني المتكلمين وألفاظهم .

توليد المعاني واستنباط غرائبها ، حتى قالوا : « ما زالت المعاني مكنوزة في الأرض حتى جاء أبو نواس فاستخرجها <sup>(١)</sup> . ولم يكن يغرب في معانيه إغراباً قريباً ، بل كان يبعد في إغرابه ، حتى ليصور الحسي بالمعنى على شاكلة قوله في الخمر <sup>(٢)</sup> :

وقد خفيت من لطفها فكأها بقايا يقينٍ كاد يذهبه الشكُّ  
وقوله <sup>(٣)</sup> :

صفتُ وصفتُ زجاجتها عليها كعنى دقِّ في ذهنٍ لطيفٍ  
وقوله <sup>(٤)</sup> :

فتمشَّت في مفاصلهم كتمشى البرء في السقم

وقلما نجد بعد أبي نواس شاعراً ممتازاً إلا وهو يلزم المتكلمين والمعتزلة ، وقد عدَّ أبو تمام منهم . وكان ابن الرومي ينزع منزعهم . ومعروف أن النظام من متقدميهم ، وقد نال شهرة مدوية على رأس المائتين بقدرته على الجدال وغوصه على المعاني الدقيقة ، ولم يكن متكلماً يحسن الكلام فحسب ، بل كان شاعراً أيضاً ، وكان يستقى شعره من الكلام والجدل . على شاكلة قوله <sup>(٥)</sup> :

ما زلت أخذ روح الدن في لطفٍ وأستبيح دمًا من غير مذبحٍ  
حتى انشيت ولي روحان في جسدي والزرق مطرحاً جسمٌ بلا روحٍ  
وقوله <sup>(٦)</sup> :

توهمه طرقي فألم خدّه فكان مكان الوهم من نظري أنثرُ  
وصافحه قلبي فألم كفه فمن صفح قلبي في أنامله عقرُ <sup>(٧)</sup>  
ومرّ بقلبي خاطراً فجرحتهُ ولم أر خالقاً قط يجرحه الفكر  
يمرُّ من لينٍ وحسنٍ تعطفٍ يقال به سكرٌ وليس به سكر

(١) أخبار أبي نواس ص ٦٤  
(٢) خزائن الأدب للحموي (طبع المطبعة الحيرية) ص ١٨٣ .  
(٣) خزائن الأدب ص ١٨٤  
(٤) الديوان ص ٣٢٤ .  
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٧٢  
(٦) أمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ١/١٨٨  
(٧) العقر: الحرح .

وعلى هذا النحو لم يكن المتكلمون يؤثرون في الشعراء بما يفتشون من معانيهم الخاصة ، بل كانوا يرددون على أسماعهم مثل هذه الأبيات التي يبعدون فيها ويغربون ويأتون بالنادر المستطرف من المعاني والصور . ولا نشك في أن الحسين ابن الضحاك كان يتأثر نزعتهم من الإغراق في الوهم والتجريد حين قال في بعض غزله (١) :

نُصِبَ عَيْنِي مِمَّشَلٌ بِالْأَمَانِي	إِنَّ مَنْ لَأَرَى وَلَيْسَ يَرَانِي
أَبْدَا بِالْمَغِيبِ بِنَتَجِيَانِ	بَأَبِي مَنْ ضَمِيرُهُ وَضَمِيرِي
نَ إِذَا مَا اخْتَبَرْتَ بِمَتَزَجَانِ	نَحْنُ شَخْصَانِ إِنْ نَظَرْتَ وَرَوْحَا
مَ بِشَيْءٍ بَسَدَاتِهِ وَبِدَانِي	فَإِذَا مَا هَمَمْتُ بِالْأَمْرِ أَوْهَـ
فَكَأَنِّي حَكِيمَتُهُ وَحِكَايِي	كَانَ وَقَفًّا مَا كَانَ مِنْهُ وَمَنِي
وَسَوَاءٌ تَحَرُّكُ الْأَبْدَانِ	خَطَرَاتُ الْبُحْفُونِ مِنَّا سَوَاءٌ

وهذا غزل جديد، لا يقوم على الحسّ وإنما يقوم على الوهم والإغراق في الخيال .

وليس هذا كل ما بعثه المتكلمون في الشعر والشعراء من جديد بفضل ما أذاعوا من دقائق الفكر والفلسفة ، فإن جماعة منهم صنفت قصائد في مخالفيم كقصيدة معدان الأعمى الشَّمِيطِي التي صنّف فيها الرافضة والغالية من الشيعة (٢) . ويلمع هنا اسم بشر بن المعتز ، إذ يقول المرتضى إن له أشعاراً كثيرة يحتج فيها على أهل المقالات (٣) ، وروى له الجاحظ في حيوانه شعراً مزوجاً في فضل علي بن أبي طالب وتقدّمه هو وأهل بيته على الخوارج يمدح على هذا النحو (٤) :

وَلَا ابْنَ عَبَّاسٍ وَلَا أَهْلَ السَّنَنِ	مَا كَانَ فِي أَسْلَافِهِمْ أَبُو الْحَسَنِ
أَوْلَئِكَ الْأَعْلَامُ لَا الْأَعَارِبُ	عُرُّ مَصَابِيحِ اللَّهِ جَبِي مَنَاجِبُ

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٧/٧ .

(٢) أمالك المرتضى ١/١٨٧ .

(٣) الحيوان ٦/٤٥٥ .

(٤) الحيوان ٢/٢٦٨ .

وروى له أيضاً قصيدتين طويلتين في أصناف الحيوان وعجائب صنع الله في خلقه وما أودع هذا الخلق من حكمته<sup>(١)</sup>. ونجد الجاحظ يروى لكثيرين أشعاراً في هذا الباب مثل الحكم بن عمرو والبهراني وقصيدته في غرائب الخلق<sup>(٢)</sup>، ومثل هرون مولى الأزدي وشعره في الفيل<sup>(٣)</sup>، وكان هندیّاً من أهل المولتان . وبذلك أعدد المتكلمون - وعلى رأسهم المعتزلة من أمثال بشر - لشيوع الشعر التعليمي (Poésie Didactique) منذ أوائل العصر العباسي ، ويظهر أن الشعراء كانوا يؤثرون فيه قالب المزدوج الذي نظم فيه بشر بعض أشعره، وقد نظمت فيه مزدوجة طويلة في الفلك لحمد بن إبراهيم الفزاري، ويقول ياقوت إنها « تدخل مع تفسيرها في عشرة أجيال ، أولها :

الحمدُ لله العليُّ الأعظمِ ذى الفضلِ والمجدِ الكبيرِ الأكرمِ  
الواحدِ الفردِ الجوادِ المنعمِ  
الخالقِ السبعِ العلى طيباقا والشمسِ يجلو ضوءها الإغساقا  
والبدرِ يملأ نوره الآفاقا

وهي هكذا ثلاثة أفعال، ثلاثة أفعال<sup>(٤)</sup> . ومرة بنا أن أبان بن عبد الحميد صاغ للبرامكة كليلية ودمنة شعراً ، واختار لشعره هذا القالب ، إلا أنه لم يجعله في ثلاثة أفعال ، إنما جعله في قفلين قفلين على نمط المزدوج عند بشر ، ويقول الجاحظ إن بشراً كان أبرع في ذلك وأقدر من أبان ، وإنه لم ير أحداً يبلغ قوته على الخمس والمزدوج<sup>(٥)</sup> . وعلى هذا الغرار نفسه نظم أبو العتاهية أرجوزته « ذات الأمثال » وقد بلغت أربعة آلاف بيت كلها أمثال وحكم على شاكلة قوله :

حَسْبُكَ مَا تَبْتَغِيهِ الصُّوتُ ما أكثر القوتَ لمن يموتُ  
لسكل ما يؤذى وإن قلَّ ألم ما أطول الليل على من لم ينم  
ما انتفع المرءُ بمثل عقله وخيرُ ذخيرِ المرءِ حسنُ فعله

(٤) معجم ياقوت (طبعة مصر) ١١٨/١٧

(٥) أمال المرتضى ١٨٧/١ .

(١) الحيوان ٢٨٣/٦ وما بعدها .

(٢) الحيوان ٨٠/٦ .

(٣) الحيوان ٧٥/٧ ، ١١٥ .

إن الشباب والفراغ والجِدَّة مفسدةٌ للمسرَّة أَى مَتَمَسِدِه (١)

وأكبر الظن أن في ذلك كله ما يوضح أن العلاقة كانت وثيقة بين الشعر والثقافات الدخيلة، فقد تحول إلى جوانب منها ينظمها كالفلك، وأيضاً فإن الشعراء نظموا تاريخ الأمم الخالية (٢)، ولا نشك في أن أرجوزة أبي العتاهية لم تكن أمثالها كلها من صنعه، وأنه استقاها من أمثال الفرس والهند واليونان أو على الأقل استقى كثيراً من جوانبها. وكم تلقانا إشارات في كتب الأدب لما كانوا ينظمون من معاني اليونان (٣) وغيرهم (٤). ولا نبالغ إذا قلنا إن منهم من كان يحسن من التفلسف ما يحسنه من الشعر، ولسنا نقصد النظام وأضرابه من المتكلمين، وإنما نقصد الشعراء أنفسهم من مثل صالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية، ومن لا يبلغ مبلغهما من التفلسف كان يأخذ بأطراف منه إن لم يكن مباشرة فعن طريق المتكلمين كما رأينا عند بشار وأبي نواس.

## ٤

## ازدهار مذهب الصنعة

لعل فيما قدمنا من حديث عن الشعر العربي في القرنين الثاني والثالث وعلاقاته الجديدة ما يوضح أن تأثيرات واسعة أخذت تؤثر في صورته، فقد كان أكثر من ينظمونه من الأجانب وخاصة من الفرس، وكانوا متحضرين تحضراً أقبلوا فيه على كثير من فنون اللهو والمجون، كما كانوا متقفين ثقافة واسعة نوعت أفكارهم ونحواطرهم، وأججت عقولهم وأذهانهم، فانطلقوا يعبرون بالشعر عما أصابوا من كنوز المعرفة، ويصورون ما يجول في نفوسهم من نزعات

(١) انظر في هذه المزوجة الأغاني ٣٦/٤ .  
والجدة : الفنى

(٢) الحيوان ١٤٩/٦ .

(٣) الأغاني ٤٣/٤ وما بعدها حيث روى أبو الفرج مربية لأبي العتاهية استمدها من أقوال الفلاسفة حين حضر واتبوت الإسكندر المقدوني وقد هيء ليدفن . وانظر البيان والتبيين

٤٠٧/١ .

(٤) انظر على سبيل المثال عيون الأخبار

٦/٣ حيث يروى حكمة هندية نظمها العتاي .

وراجع زهر الآداب ٩٠/١ حيث يذكر عن محمودالوراق أنه كان كثيراً ما ينقل أخبار الماضين وحكم المتقدمين فيحلى بها نظامه ويزين بها كلامه .

وأحاسيس . فإذا بنا إزاء عصر جديد ، وهو عصر لا تنقطع فيه الصلة بين ماضي الشعر وحاضره ، فقد وضع الشاعر العباسي نُصْبَ عينيه نموذج الشعر القديم وحوَّل كل ما يتضمنه هذا النموذج من معان وصور إلى عصره ، وأضاف إليها حشوداً من معان وصور جديدة ، وألَّف من ذلك كله نموذج الحديث .

وتختلف صلة هذا النموذج بالنموذج القديم سعة وضيقةً ، فهو في المديح والشعر الرسمي أقرب إلى القديم منه في شعر الغزل والحمر والمجون ، وبذلك يستمر فيه أوبعارة أدق في مدائحه الحديث عن الأطلال ووصف الصحراء وما يتصل بها من رحلة وصيد ، وحتى هو في الموضوعات ذات الصبغة الجديدة كالخمريات يستمد مما قاله القدماء . ومعنى ذلك أن الشعراء كانوا يجددون ولكن مع ضرب من التوازن . فهم لا ينسون القديم ، بل هم يعكفون عليه محاولين أن يستفدوا دِ نانه ، وكأنه يشبه - عندهم - الخمر المعتقد التي كانوا يُسْتَفَعُونَ بها .

ويُخَيَّل إلى الإنسان كأنما أحال الشاعر العباسي الشعر القديم إلى ما يشبه تلك الجُذُذَات التي يجمعها العلماء حين يريدون أن يبحثوا موضوعاً ويستقصوه استقصاءً ، ومن الحق أن استقصاءهم كان عميقاً ، فهو استقصاء فيه جِدَّة وصرامة ، وفيه غير قليل من المصاعب والمتاعب ، فهم لا ينظمون الشعر إلا بعد أن يحفظوا آلاف القصائد ومئات الأراجيز وإلا بعد أن يستظهروا ذخائر الشعراء الجاهليين والإسلاميين . ومن غير شك يرجع الفضل في ذلك إلى اللغويين الذين جمعوا لهم مادة الشعر القديم ووضعوها تحت أعينهم مفسرة مشروحة . وقد أشاعوا بينهم تلك العميدة التي تَبَيَّنَتْ في الأذهان تفوق الشعر الجاهلي وأنه مثل أعلى خليق بالشاعر العباسي أن يجاريه . وتبعهم الشعراء يدرسون هذا الشعر ويحاولون بكل ما يستطيعون أن يحاكوه ، وكأنما رأوا حيوية كامنة في روحه تجعله خليقاً بالبقاء والمحاكاة ، وأثبتوا في مهارة أنهم جديرون بالقيام على تراثه النفيس واستغلاله واستنفاد طاقاته .

وتوضح لنا كتب السرقات مدى هذا الاستنفاد والاستغلال ، وكلما مضينا في العصر أضافت الأجيال إلى هذا التراث أعمال المحدثين من سبقوهم

وأشعارهم ، وأكبَّ الشعراء عليها بحثاً ودرساً وتعمقاً واستقصاءً، وبذلك اتصلت الأسباب وتوثقت بين قديم الشعر العربي وحديثه ، واحتفظ بكل مادته ومشخصاتها على مر العصور وتعاقب الدهور .

وليس معنى ذلك أن الشعر العربي لم يتطور في العصر العباسي تطوراً واسعاً ، ولكن معناه أن الشعراء كانوا في أثناء تطورهم به ينسقون بين سدى الماضي وُحمة الواقع ونغمات الغابر وألحان الحاضر . ونستطيع أن نستعرض فنون الشعر ، فنناً فنناً فسراها جميعاً تتطور ، وإن كان التطور يختلف كثرة وقلّة ، فهو في المديح والشعر الرسمي محدود ، إذ نجد الشاعر يحافظ غالباً على التقاليد الفنية الموروثة ، ولكنه مع ذلك يلوّن في معانيه تلويناً واسعاً بفضل ثقافته وما أتاحت له من قدرة على توليد المعاني والغوص على الأفكار والأحاسيس الدقيقة من مثل قول بشار في عمر بن العلاء<sup>(١)</sup> :

دعاني إلى عُحْرٍ جودُهُ	وقولُ العشيّةِ بجرّ خِصَمِ
ولولا الذي ذكروا لم أكن	لأمدح ربحانةً قبل شَمِ
فتى لا ينسام على دمننة	ولا يشرب الماء إلا بدم <sup>(٢)</sup>
إذا نبهتّك حروب العُدّة	فنبّه لها عمراً ثم نمّ

وقول علي بن جبلة في أبي دلف العجلى<sup>(٣)</sup> :

كل من في الأرض من عرب	بين باديه إلى حضرة
مستعير منك مكرمة	يكتسيها يوم مُفتّخره
إنما الدنيا أبو دلف	بين مغزاه ومُحتضره
فإذا ولّى أبو دلف	ولّت الدنيا على أثره

وتفويض كتب الأدب والنقد بمثل هذه المعاني الرائعة . وكذلك كان شأنهم في الرثاء ، إذ أدخلوا فيه كثيراً من خيوط الحكمة والعظة التي قرءوها ،

(١) طبقات الشعراء ص ٢٥ والأغاني (٢) الدمة : الحقد .  
(٣) طبقات الشعراء ص ١٧٢ . ١٩٣/٢

كما أدخلوا كثيراً من أحاسيسهم النفسية الباطنة ، على شاكلة مرثية أبي العتاهية لأحد أصدقائه المسمى عليّ بن ثابت ، وفيه يقول (١) :

وقد كنت أغدو إلى قَصْرِهِ	فقد صرتُ أغدو إلى قَبْرِهِ
أخُ طالما سرّني ذكْرُهُ	فقد صرتُ أشجّي لمدى ذكْرِهِ
فتىّ لم يملّ النَّدى ساعةً	على عُسْرِهِ كان أو يُسْرِهِ
فصار عليّ إلى ربّه	وكان عليّ فتيّ دهره
أنته المنية مغتالةً	رُوَيْدًا تخلّل من سِتْرِهِ
فلم تُغْنِ أجناده حوله	ولا المرعون إلى نصْرِهِ
وخلّى القصور التي شادها	وحلّ من القبر في قَعْرِهِ
أشدّ الجماعة وجْدًا به	أشدّ الجماعة في طَمْرِهِ

وتحولوا بالهجاء من نقائضه الطويلة المعروفة عند جرير والفرزدق والتي تزخر بالأنساب والأيام إلى ضرب قصير يشبه الأمثال الفارسية التي تنسب إلى بزجمهر وأضرابه ، فأصبح كلمات قليلة حادة ، تشبه سهام السريعة النافذة ، وكل شاعر يبحث عن سهم مُصمّم يرسله إلى خصمه يريد أن لا يُبْقى عليه ولا يَنْدُر ، ولعل ذلك ما جعلهم يعمدون فيه إلى القذف في الأعراس والرى بالزندقة والإلحاد ، حتى بين الزنادقة أنفسهم ، مثل بشار وحمام عجرد ، وقد استطار الهجاء بينهما ، وفي بشار يقول حمام (٢) :

نهاره أَخْبِثُ من ليلته	ويومُه أَخْبِثُ من أمسه
وليس بالمُفْلَعِ عن غِيَّةِ	حتى يُوَارِي في ثَرَى رَمْسِهِ

وكان يكثر من هجائه بالعمى على شاكلة قوله (٣) :

ويا أقبَحَ من قِرْدٍ	إذا ما عمِيَ القِرْدُ
----------------------	-----------------------

ويغضب بشار ويثور ، فيرميه بالزندقة وعبادة إلهي النور والظلمة على

شاكلة قوله (٤) :

يا بن نَهِيًّا رأسٌ على ثَقِيلٍ	واِحْتِمَالُ الرّأْسَيْنِ خَطْبٌ جَلِيلٌ
---------------------------------	--

(١) ديوان أبي العتاهية ص ١٢٤ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٦٧ .

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ٧٤/١٣ .

(٤) أمال المرتضى ١/١٣٣ .

فادْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ رَبِّي نِ فإني بواحدٍ مشغولٌ

وما زال هذا الضرب القصير من الهجاء اللاذع ينمو حتى تحوّل عند ابن الرومي إلى ما يشبه الصور الساخرة « الكاريكاتورية » وسنعرض لذلك عنده في الفصل التالي .

ومرّ بنا أنهم أثاروا في هذا العصر دعوة الشعوبية ، ومن خلالها تطور فن الفخر القديم ، فلم يعد فخراً في حدود العصبية القبلية فحسب ، بل أخذ يجول في حدود العصبية الجنسية ، على نحو ما أسلفنا عند بشار . وليس معنى ذلك أن الفخر القبلي اختفى فقد ظلت منه أسراب ، ودخل فيه الموالى أيضاً ، فافتخروا باليمينية والمضرية ولاء ، على نحو ما نجد عند بشار في افتخاره بمضر ، وكان أبو نواس يكثر من افتخاره باليمينية مواليه (١) ، ومثله هرون مولى الأزدي الذي كان يردُّ على الكميت ، ويفخر بمحطان (٢) .

وتطور الغزل تطوراً قوياً ، ولا نقصد ما ظهر فيه من الغزل بالعلمان وآثامه ، وإنما نقصد الغزل الطبيعي ، فإن المرأة الحرة الكريمة لم تعد موضوعه ، وإنما أصبح موضوعه الإمام والحواري ممن كانت تزخر بهن دور الرقيق ومجالس الشعراء وقصور الأشراف والخلفاء ، وقد أذاعوا فيه ضروباً من الحرية والصراحة المكشوفة كما أذاعوا فيه إغراء شديداً ودعوة إلى التهلكة والخلاعة وانتهاز الفرص واللذات ، من مثل قول بشار (٣) :

لا يُؤَيِّسُ سَتَكَ مِنْ مُخْبِئَةٍ      قولٌ تغلّظه وإن قَبَّحْنَا  
عَسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مِيَاسِرَةٍ      والصعبُ يمكنُ بعدما جَسَمْنَا

ومن الحق أنهم بجانب ذلك استغلوا الغزل العذري العفيف الذي شاع في نجد وبوادي الحجاز أيام الأمويين ، واشتهر بالضرب على مثاله العباس بن الأحنف ، وحتى الشعراء الماسجون من أمثال بشار وأبي نواس ومطيع بن إيامس كانوا ينظمون

(١) انظر طبقات الشعراء ص ١٩٥ وما بعدها والديوان ص ١٥٥ وما بعدها .  
(٢) الحيوان ٧/٧٥ .  
(٣) طبقات الشعراء ص ٢٥ والأغاني ٢٢١/٣ .

منه أحياناً ما يُعجَب ويروع . وهم يروون أن الذى بعث أبا نواس على صحبة  
والبة وأرغبه فيه بيتان سمعهما منه ، هما :

ولها ولا ذنبٌ لها حُبُّ كأطرافِ الرياحِ  
فى القلبِ يَجْرَحُ دائماً فالقلبِ مجروحِ النواحي<sup>(١)</sup>

ويتملى الأغاني بألاف المقطوعات الغزلية التى نظمها هؤلاء الشعراء وأمثالهم ،  
وكثير منها يتسم بدقة الذوق ورقة الشعور ولطف الإحساس .

واستوت للخمرية صورتها فى هذا العصر ، وحقاً نجد منها نماذج عند  
الوليد بن يزيد ، ولكن هذا العصر هو الذى انتهى بها إلى شكلها النهائى ،  
سواء من حيث الفصـر أو من حيث التنوع فى معانيها وأخيلتها ، ويكفى أنه أنتج  
أبا نواس أكبر من تغنوا بالخمـر وكثوسها وسُقَاتها وأديرتها . وكان طبيعياً أن  
تُحدث الخمر وما يتصل بها من مجون ردِّ فعل فى العصر ، فإذا شعر الزهد يدور  
على الألسنة فى مقطوعات قصيرة تنفّر من المتاع بزخارف الحياة ، وتحدث  
عن الموت ومصير الإنسان حديثاً يهز النفوس على نحو ما قدمنا فى غير هذا الموضع .  
وهذه كلها تجديدات من حيث المضمون ، أما من حيث الشكل والصيغة  
فقد مر بنا فى الفصل السابق ما استحدثوه من أوزان بتأثير الغناء والموسيقى ،  
وكانوا من أجلهما يؤثرون الأوزان المجزوءة ، وشاع ذلك فى الغزل والخمر ، وعرفوا  
المخمّس والمزدوج ، واختار أصحاب الشعر التعليمى القالب الأخير لشعرهم ، وكأنما  
أغراهم به وفرة الموسيقى فيه ، حتى تتلافى ما فى معانيهم من جفاف المعرفة والحكمة .  
ومن المؤكّد أن الشعراء عانوا كثيراً فى صياغاتهم ، حتى وصلوا إلى أسلوبهم الذى  
يسمى بأسلوب المولّدين ، وهو أسلوب ناصع شفاف ، لا يُعنى بالثروة اللغوية من  
حيث هى ، وإنما يعنى قبلها بثروة الفكر وباستثارة الوجدان ، حتى يعرض  
المعاني النادرة والأحاسيس الدقيقة . وهو أسلوب ليس فيه ركافة ولا ابتذال ،  
ومع ذلك فهو أسلوب مبسّط استطاعوا بذوقهم الحضرى الرقيق أن يُحدّثوه ،

(١) طبقات الشعراء ص ٢٠٨ .

فإذا لغته أشد ما تكون نقاء ، وإذا هذا النقاء يُحْتَجَى عِنا جهدهم في صنعه وما عاوزه من تصيّد صيغه الصوتية لمعانيهم وأحاسيسهم واختيار أثوابه وأبراده الوضّاحة لأفكارهم ودقائقها الحفوية .

والحق أنهم كدحوا طويلاً في معانيهم وصياغاتهم وأخيلتهم وصورهم ، حتى يحتمقوا ما يريدون من تفوق وبراعة ، وقد أكبّوا على ينايغ اللغة العذبة ينهلون منها ويستمدون أساليبهم ، وقد تنبّد فيها بعض ألفاظهم الأعجمية ، ولكن ذلك يأتي في الندرة وعلى سبيل التظرف والتلمح . أما بعد ذلك فهم يتمسكون بالصياغة العربية النقية ، ويستخدمون كل وسائلهم في صوغ أساليب تموج بالحوية والفكر العميق والحس الدقيق في نظام موسيقى رشيقي . ولم ينسوا أبداً أن روعة الصياغة لا تقل عن روعة الفكر والحس جمالا ، وكلنا نعرف قصة غضب بشار على تلميذه سلّم الخاسر حين صاغ بيتاً له صياغة جديدة أجمل من صياغته ، فقد قال بشار :

مَنْ رَاقِبِ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ      وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّيْجُ  
وَلَمْ يَكِدْ يَسْمَعُهُ مِنْهُ سَلَمٌ      حَتَّى أَعْجَبَ بِمَعْنَاهُ وَأَخَذَ يَفْكَرُ فِي صِيَاجَتِهِ  
صِيَاعَةً جَدِيدَةً أَعْدَبَ وَأَرْشَقَ ، وَمَا زَالَ يَفْكَرُ حَتَّى قَالَ :

مَنْ رَاقِبِ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا      وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ  
وَنُقِلَ الْبَيْتُ إِلَى بَشَارٍ ، فَحَسِنَقَ عَلَى سَلَمٍ حَسَنَقًا شَدِيدًا<sup>(١)</sup> ، وَلَمْ يَكُنْ مَصْدَرُ هَذَا  
الْحَقِيقِ سِوَى تِلْكَ الْكَسُوةِ اللَّفْظِيَّةِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي كَسَا بِهَا سَلَمٌ مَعْنَاهُ . وَكَانَ الشُّعْرَاءُ  
يَجْتَمِعُونَ دَائِمًا لِيَنْشُدَ كُلُّ مِنْهُمْ خَيْرَ مَا نَظَمَ ، مُتَنَافِسِينَ فِي ذَلِكَ مُتَسَابِقِينَ ، وَكَلِمَا  
أَلَمَّ مِنْهُمْ شَاعِرٌ بِمَعْنَى غَرِيبٍ تَدَاوَلُوهُ ، وَنَسُوقَ لِذَلِكَ مِثَالًا : هُوَ مَا يَرُوَى مِنْ أَنَّ  
أَبَا نُوَّاسَ اسْتَمَعَ إِلَى خَمْرِيَّةَ لِلْحَسَنِ بْنِ الضُّحَاكِ يَقُولُ فِيهَا :

كَأَنَّمَا نَصَبَ كَأْسَهُ قَمَرٌ      يَكْرَعُ فِي بَعْضِ أَنْجَمِ الْفَلَكَ

فَنَعَرَ (صَاح) نَعْرَةً مَنكَرَةً ، فَقَالَ لَهُ الْحَسَنِ : مَا لَكَ قَدَرَعْتَنِي ؟ قَالَ : هَذَا الْمَعْنَى

(١) طبقات الشعراء ص ١٠٠ وانظر الأغاني

أنا أحق به منك ، وسترى لمن يُروَى ، ثم أنشد بعد أيام خميرية ، يقول فيها :  
 إذا عَبَّ فيها شاربُ القوم خِلْتَهُ يُقبَلُ في داجٍ من الليل كوكبا<sup>(١)</sup>  
 وعلى هذا النحو كانوا لا يزالون يُجهدون أنفسهم في صناعتهم سواء في  
 معانيها وصورها أو في ألفاظها وصياغاتها ، وكان كل منهم يَنفَسُ على صاحبه  
 ما يصل إليه من جديد في المعنى أو في الصورة ومن طريف في الصياغة والعبارة ،  
 وحقاً كانوا أجنب في الغالب ، ولكنهم حذقوا العربية وتحولوا يصوغون منها عقوداً  
 ولآلئاً بديعة ، وكانوا يعرفون ذلك في أنفسهم وعملهم ، فقد سأل سائل بشاراً  
 ما صناعتك ؟ فأجابته : أثقب اللؤلؤ<sup>(٢)</sup> ، ونظم ذلك شعراً ، فقال يصف  
 نفسه<sup>(٣)</sup> :

لله ما راحَ في جِوانحه من لؤلؤٍ لا ينام عن طلبه  
 يخرجنَ من فيه في الندى كما يخرج ضوءُ السراج من لهبه

ولعل في ذلك ما يصور - من بعض الوجوه - ما انتهت إليه صنعة الشعر  
 في هذا العصر من رقي وازدهار ، فقد ارتقى الشعراء بها من وجوه كثيرة ، من  
 حيث المعاني وما أثاروا من غرائبها ، ومن حيث الأحاسيس وما بعثوا من طرائفها ،  
 ومن حيث الصياغات وما نسقوا من فرائدها . وسرى بعد قليل أن ضروب  
 إحسانهم لذلك كله انتهت بهم إلى مذهب جديد هو مذهب التصنيع ، ولكن  
 هذا المذهب لم يظهر توتواً ، بل أخذ يُعيد له جيلان ، جيل بشار ، وجيل أبي  
 نوامس وأبي العتاهية ، ونحن نقف عند صنعهم قليلاً ، لنرى مبلغ مهارتهم وحذقهم .

## ٥

بشار وصنعتة في شعره

هو بشار بن بُرد كان أبوه من سبي المهلب بن أبي صفرة حين كان والياً  
 على خراسان من سنة ٧٩ إلى ٨٢ وقد على البصرة مع بعض الأسرى وأقام بها مع

(٣) عيون الأخبار ١٨٢/٢ .

(١) زهر الآداب ١١٤/٢ .

(٢) أغاني ١٥٩/٣ .

زوجه ، وربما كانت رومية ، وقد وُلد لهما بشار في العقد الأخير من القرن الأول للهجرة أعمى لا يبصر<sup>(١)</sup> ، وحددت هذه الآفة حياته إذ جعلته يتجه إلى مجالس العلماء والأدباء ، وكان ذكياً ، فأخذ يتعلم العربية ، وساعده على ذلك مَرَبَاهُ في بنى عُقَيْل ، إذ وهبته امرأة المهلب لإحدى صديقاتها منهم<sup>(٢)</sup> وأيضاً فإنه حين أبيض تبدى حتى أدرك كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ويقال إن إباه كان طيئنا يضرب اللبّين<sup>(٣)</sup> ، وكان له أخوان احترفا مهنة الجزارة<sup>(٤)</sup>.

ولما استيقظت في بشار مواهبه الشعرية أخذ يغدو على الميربند ، فيستمع للفرزدق وجرير وأضرابهما ، وتعرض لجرير يريد أن يردّ عليه حتى يشتهر ولكنه لم يأبه له . وظل يُعنى بهذا الفن فن المهجاء ، حتى يقال إنه كان سبب حتفه<sup>(٥)</sup> . ولا نشك أنه منذ نشأته كان يقصد سرّاة البصرة بمدحها ، حتى يجلب لنفسه منهم بعض المال . وأخذ يخالط علماء الكلام ، فكان يصحب واصل بن عطاء مؤسس مذهب المعتزلة ، وأعدّه ذلك لأن يتصل بأراء الزنادقة التي كان يردّ عليها واصل وغيره من المتكلمين ، كما أعده لأن يعرف شيئاً من منطق اليونان وفلسفتهم مما تسرب إلى تلك الجماعة . ولا نصل إلى سنة ١٢٦ للهجرة حتى يفسد ما بينه وبين واصل لما أظهره من زندقة سبق أن عرضنا لها ، وأباح واصل دمه ، ففرّ عن البصرة ووجد على حَرَّان فدح سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وتحول إلى واسط حين ولي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ، فلزمه وقدم له مدائح يتضح فيها تعصبه لقيس لأن الأمير كان قيسياً وكان هو ولاؤه أيضاً لقيس المضربة ، وكذلك كان الخليفة مروان بن محمد مضربى النزعة ، فلجّج في هذا الباب طويلاً . وتطورت الظروف ، وتوفّي واصل وقامت الدولة العباسية على رماح الخراسانيين ، غير أنه لم يعد إلى البصرة إلا بعد وفاة عمرو بن عبد خليفة واصل سنة ١٤٤ للهجرة<sup>(٦)</sup> ، وقد عاد نائراً ، شاعراً كأن الدنيا أقبلت عليه ،

- (١) أغاني ١٣٦/٣ ، ١٤١ وانظر طبقات الشعراء ص ٢٢ .  
 (٢) أغاني ١٣٦/٣ .  
 (٣) البيان والتبيين ١/٢٥٠ .  
 (٤) انظر فيها البيان والتبيين ١/٣٠٠ .  
 (٥) أغاني ٢٤٥/٣ .  
 (٦) البيان والتبيين ١/٢٥٠ .  
 (٧) أغاني ١٣٧/٣ .

واشتعلت الجذوة التي كانت خامدة في نفسه جذوة الشعوبية ، ونسب نفسه في ملوك الفرس الأولين<sup>(١)</sup> . ونراه متردداً إزاء الخلفاء العباسيين ، لما قدّم سابقاً من شعره في يزيد بن عمر بن هبيرة ومروان بن محمد ، ولعل ذلك ما جعله يحس بشيء غير قليل من الفرح حينما نشبت ثورة إبراهيم بن عبد الله على المنصور في البصرة سنة ١٤٥ للهجرة فأسرع يمدحه بميمية فضلها الأصمعي على ميميني جرير والفرزدق . ولما أخفقت الثورة أنكرها بشار ، وحذف منها أبياتاً ، وأظهر أنه قالها في عدو المنصور أبي مسلم ، وكان أولها :

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشٍ بدأئمٍ ولا سالمٌ عما قليلٍ بسالمٍ

فقال : أبا مسلم بدلا من «أبا جعفر»<sup>(٢)</sup> . ونراه يكثُر من وفادته على خالد ابن برمك في أثناء ولايته على فارس ، فيقرّ به منه ويبدل له أموالاً كثيرة<sup>(٣)</sup> . وكذلك كان يصنع ممدوحوه من ولاة البصرة وعلى رأسهم عقيب بن سلم الهنثاني . ولما علا نجم خالد وابنه يحيى في عصر المهدي رأبناهم على الخليفة يمدحه ، فيقرّ به منه ويحضره مجالسه ، ويعلم بما في شعره من الرّفث في الغزل وأنه يصرّح فيه بأشياء تفسد الشباب ، فينهاه عن ذلك ، ويشكو في شعره من هذا النهى كثيراً . ولا تلبث الأخبار أن تتواتر على سمع المهدي بزندقته . فيأمر بقتله ، يقول ابن المعتز : «وقيل : بل قيل للمهدي إنه يهجوك فقتله ، والذي صح من الأخبار في قتل بشار أنه كان يمدح المهدي ، والمهدي يُسّعم عليه ، فرُمِيَ بالزندقة ، فقتله ، قيل : ضربه سبعين سوطاً ، فمات ، وقيل بل ضرب عنقه . وكانت وفاته سنة سبع وقيل ثمان وستين ومائة»<sup>(٤)</sup> .

وواضح أن عوامل متشابكة أثرت في شخصية بشار الأدبية ، فقد كان مولى ، وكان يحس بعمق أنه قنّ ابن قنّ وأنه من أسرة فقيرة متخلفة في المجتمع ، فانطوى على مرارة ولّدت فيه ميلاً قوياً إلى العدوان ، وقد ورث عن جنسه الفارسي مزاجاً حاداً واندفاعاً شديداً نحو المتع الحسية ،

(١) أغاني ١٣٨/٣ والديوان ٧٣/١ . (٢) أغاني ٢٠٢/٣ وانظر ١٧٣/٣ ،

(٣) أغاني ١٥٦/٣ - ١٥٨ وانظر ١٨٤ ، ١٩٢ .

(٤) ٢١٣-٢١٤ . (٤) طبقات الشعراء ص ٢١ .

وضاعف ذلك عنده أنه كان مكفوفاً ، فعدت وسيلته إلى الجمال والإحساس به حسية : سمعية ولسية ، وغزله من هذه الناحية يصور آثار فقدته لبصره وما تركه حواس السمع واللمس والشم من آثار في نفوس المكفوفين . واندمج في هذه المكونات الشخصية والجنسية مكوّن البيئة وما كانت تكتظ به سن دور الرقيق والحوارى والإماء . كل ذلك دفعه لصراحة صريحة في غزله ونحمره ، وهى صراحة وجدّ فيها رجال الدين من وعاظ البصرة خطراً على المجتمع ، فقاوموه مقاومة عنيفة<sup>(١)</sup> ، وبلغ من شدة هذا الخطر أن تدخل المهدي وحاول أن يرده عن هذه الطريق<sup>(٢)</sup> ولكن الموجة كانت حادّة ، ودخل فيها جمهور الشعراء لافى البصرة وحدها ، بل في الكوفة أيضاً وفي بغداد ، وكان الجوارى وغناؤهن من أهم ما يروّج لها ، إذ أتحنّ لهذا الشعر الماجن الجديد انتشاراً واسعاً ، وكن يبسعن وينتقلن من العراق إلى الحواضر العربية ، فكن يحملنه في حقائبهن ويُدعنه في كل مكان . واشتركت الثقافات الأجنبية والعربية في تكوين شخصية بشار ، فقد كان يجالس المتكلمين كما قدمنا كما كان يجالس من يعرفون زندقة الفرس ودهرية الهند وآراءهم في التناسخ ، ويجمع ذلك كله قول صاحب الأغاني « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبّيد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوّجاء ورجل من الأزد - يعنى جرير بن حازم - فكانوا يجتمعون في منزل الأزدى ويختصمون عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال .. وأما بشار فبق متحيراً مخلّطاً وأما الأزدى فمال إلى قول السُمّنيّة وهو مذهب من مذاهب الهند الدهرية يقول أصحابه « بتناسخ الأرواح »<sup>(٣)</sup> وأكبر الظن أن بشاراً لم يظل متحيراً طويلاً ، فقد اعتنق الزندقة<sup>(٤)</sup> كما اعتنقها صالح وابن أبي العوّجاء وقتلوا بها جميعاً لعهد المهدي . والمهم أن بشاراً كان واقفاً على معارف عصره وثقافته الدخيلة وكان لها تأثير واسع فيه ، حتى آمن بما يقول به المانوية والمزدكية . وربما كان أهم ثقافة أثرت في شعره هى الثقافة

(٤) أغاني ١٤٥/٣ وانظر البيان والتبيين

١٦/١ وما بعدها .

(١) أغاني ١٧٠/٣ .

(٢) أغاني ١٨٢/٣ .

(٣) أغاني ١٤٦/٣ .

العربية التي هيأته للتفوق في فن الشعر ، وساعدته في ذلك نشأته اللغوية ، واختلافه إلى المريد ، وأيضاً خروجه إلى البادية حتى يأخذ اللغة من يابيعها الأصلية . وبذلك تحولت إليه السليقة اللغوية العربية تحولا لفت إليه الأنظار ، حتى كان لا يقول ما يُستكره في شعره<sup>(١)</sup> ، بل حتى كان يميز تمييزاً دقيقاً بين جيد الشعر ورديثه وصحيحه ومنحوله<sup>(٢)</sup> :

وكثيرٌ في حياة بشارٍ ملاً نفوسنا عليه ازدراء ، فنحن نزرى فجره وهتكه وفسقه وزندقته وشعوبيته ، وقد لقي عند المهدي جزاءه وإن جاء متأخراً . غير أننا إذا تركنا هذه الجوانب السيئة في حياته إلى شعره وجدنا معاصريه ومن جاءوا بعدهم يُجمعون على أنه هو الذي نهج للعباسيين طريقهم الجديدة ، وهي طريقة كانت تعتمد اعتماداً شديداً على الأصول التقليدية للشعر القديم ، حتى لتبدو فيه نزعة محافظة وخاصة في مدائحه ، فإن الإطار فيها لا يختلف عن الإطار القديم إلا قليلا ، إذ يستوفى فيها قيم التعبير الجزلة وكل ما تقتضيه الجزالة من رصانة وقوة في البناء . ومعنى ذلك أن بشارا الفارسيّ الجنس قد أثر فيه مَرَبَاه العربي حتى أصبح عربياً خالصاً في أسلوبه وتعبيره . ولا يعنى ذلك أنه كان غائباً في مديحه عن عصره ، فهو يزواج بين الماضي والحاضر : يصف الأطلال والصحراء ولكن بدوق حضري جديد ، فيه رقة ، وفيه دقة في استنباط المعاني وتوليدها . إنه ربيب بيئة المتكلمين ، وقد أخذ عنهم قدرتهم في بسط الأداة وتفصيل الأفكار وتفريغها وتشعيب المعاني وتشقيقها ، كما أخذ عن الفرس أمثالهم وحكمهم ، وتحول إلى معاني الشعر الجاهلي يستخرج منها مالا يُحصَى من خواطر ، ويستطيع أن يتبين ذلك كلُّ من يقرأ مديحه ، فنسيجه العام قديم ، ولكن خيوطاً كثيرة جديدة تلمع في هذا النسيج ، حتى في نماذجه الموعلة في التشبُّه بالبدو ، ونقصد الأراجيز ، مثل أرجوزته التي سبق أن تحدثنا عنها والتي نظمها تحديداً لعقبة بن ربيعة إذ نراه يقول في تشبُّبها<sup>(٣)</sup> :

صَدَّتْ بِخَدِّ وَجَلَّتْ عَنْ خَدِّ      ثُمَّ انْتَنَتْ كَالنَّفْسِ الْمُرْتَدِّ

(٣) أغاني ١٧٥/٣ وديوان بشار (طبعة

لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢١٨/٢ .

(١) أغاني ١٤٩/٣ .

(٢) أغاني ١٤٣/٣ .

ويُدخل في نسيجها بعض الحكمة ، فيقول :  
 الحرُّ يُلحَى والعصا للعَبْدِ وليس للمُلحِفِ مثلُ الردِّ (١)  
 وصاحبٌ كالدُّمْلِ المُمِدِّ حملته في رقعةٍ من جِلْدِي  
 ويتنقل إلى المديح فيصف ممدوحه بالشجاعة والكرم على طريقة العرب  
 ويقول في تضاعيف ذلك :

ما كان مني لك غيرُ السودِّ ثم ثناءٌ مثلُ ريحِ الوَرْدِ  
 وبمثل هذه الخيوط الجديدة يختلف مديح بشار عن المديح القديم ،  
 فالقصيدة في الظاهر توغل في التمسك بإطار القدماء ومعانيهم ، وفيها مع ذلك  
 كثير من عقل بشار وذوقه وبراعته في التصوير . ويضرب القدماء لتلك البراعة  
 مثالا : أنه ما زال يُدير في نفسه بيت امرئ القيس في وصف العُقَاب :  
 كأن قلوبَ الطيرِ رطباً ويا بسا لدى وكريها العُنَّابُ والحشَفُ البالي (٢)  
 حتى قال في المديح :

كأن مُثَارَ النَّقْعِ فوق رءوسنا وأسيافنا ليلٌ مهاوى كواكبهِ (٣)  
 وإذا تركنا مديحه إلى فخره وجدنا فيه نفس متانة البناء ونفس الصياغة  
 الباهرة التي تميّز بها شعراء العرب السابقين من أمثال زهير والنابغة وجريير ، وإنه  
 ليضيف إلى معانيه مبالغة تزيد جمالها على شاكلة قوله مفتخرأ بقيس مواليه  
 في ميميته المشهورة (٤) :

إذا ما غضبنا غَضْبَةً مُضْرِبَةً هتكنا حجابَ الشمسِ أو تمطر الدما  
 وكنا نتمنى أن لو ظل يفتخر بالعرب وأن لا ينقلب مع الثورة العباسية  
 يفتخر بأبائه من الفرس ، حتى لا يؤذينا في فخره بشعوبيته ، وكان حرياً به  
 أن يظل مؤمناً بالعرب الذين أورثوه هذا الفن الجميل .

وتطوّر الهجاء عنده على هدى الأمثال الفارسية القصيرة ، إذ استطاع هو  
 وصاحبه حماد عجرد أن يحدثا فيه هذا النمط القصير الذي سبق أن عرضنا

(١) يلحى : يلام .

(٢) العُنَّاب : ثمر أحمر ، أو هو عنب

(٣) أغاني ١٩٦/٣ والنقع : القبار .

(٤) أغاني ١٦٢/٣ .

العناب ، والحشف : ما يبس من الثمر .

له ، وقلنا إنه كان يقوم على التذف في الأعراض والأتهم بالزندقة والإلحاد ، مع أنهما كانا جميعاً زنديقين ملحدين . ويصوّر بشار هجاءه فيقول :

تَزِلُّ القوافي عن لساني كأنها حُمات الأفاعي ريقهن قضاء<sup>(١)</sup>

ويقول الجاحظ في المفاضلة بينه وبين خصمه : « وما كان ينبغي لبشار أن يناظر حماداً من جهة الشعر وما يتعلق بالشعر لأن حماداً في الحضيض وبشاراً مع العيوق<sup>(٢)</sup> ، وليس في الأرض مولد قروي يُعَدُّ شعره في المحدث إلا وبشار أشعر منه<sup>(٣)</sup> . »

وإذا تحولنا إلى الغزل عند بشار وجدناه فيه يعكف على نماذج القدماء شأنه في كل شعره ، فهو يقرأ الغزل الجاهلي ويقرأ غزل عصر بني أمية عند عمر بن أبي ربيعة وأضرابه من أهل مكة والمدينة وعند جميل بثينة وأضرابه من شعراء نجد وبادي الحجاز ، وبذلك يعرف معرفة دقيقة شعر الأطلال والوصف الحسبي للمرأة عند الجاهليين ، كما يعرف شعر عمر وأمثاله مما يصور قصة الحب ووقائع حياته وموته وما يُشْفَعُ به من بعض الحرية ، كما يعرف شعر العُدريين وما يكسوه من عفة وظهر ، ويحوّل كل ذلك إلى غزله . ولا يقف عنده ، بل يضيف إليه إثمه ومجونه . وكل ما رقدته بيثته به من أسباب العبث التي زخر بها جنوّ المجتمع العباسي وما أذاعه فيه الإماء والجوازي من مجون . وكان بشار لا يأبىه للقيم الخلقية والدينية ، وكان ضريراً ، فاعتمد على حاستي السمع واللمس في غزله ، ولعل من الطريف أنه يصرح بذلك في مثل قوله<sup>(٤)</sup> :

يا قومُ أذني لبعض الحى عاشقةٌ والأذنُ تعشق قبل العين أحياناً  
ولا يصبح الغزل عنده في أكثر جوانبه حسبياً فحسب ، بل يصبح ضرباً

من نداء الغريزة النوعية بصورة ليس فيها أدنى احتشام ، بل فيها غير قليل من العدوان على المجتمع وآدابه . ولانبالغ إذا قلنا إنه هو الذي دفع الشعراء من بعده إلى التمادى في تصوير المتاع الحسبي ، حتى الشاذ منه على نحو ما هو معروف عند أبي نواس . وحقاً قد نقرأ عنده غزلاً يحتفظ فيه بكرامته وكرامة المرأة

(١) الديوان ١٢٩/١ والحيوان ٢٦١/٤ يضرب به المثل في العلو .

والحمات : أنياب الأفي . (٣) الحيوان ٤٥٣/٤ .

(٢) العيوق : نجم أحمر في طرفه المجرة ، (٤) طبقات الشعراء ص ٢٩ .

من مثل قوله<sup>(١)</sup>:

لم يَطُلْ لَيْلٌ وَلَكِنْ لَمْ أَنْتَمِّ      وَنَقَى عَنِ الْكَرَى طَيْفٌ أَلْمَ  
نَفْسِي عَنِ قَلِيلًا وَعَلِمِي      أَنْبَى يَا عَبْدَ مَنْ لَحْمٍ وَدَمٍ  
إِنْ فِي بُرْدِي جَسْمًا نَاحِلًا      لَو تَوَكَّاتٍ عَلَيْهِ لَا نَهْلَمُ

ولكن كثرة الغزل المادى الصريح عنده طغمت على مثل هذه الآيات التي كان يشكو فيها الصبابة وتباريح الحب . وينبغي أن نعرف أنه مع ماديته في غزله كان لا يزال يستقى من غزل القدماء ومعانيه ، ولا يزال يتتبع حتى صورهم فيصوغها صياغة جديدة تلائم رقة عصره : فقد روى الرواة أنه أنشد قول كثير :

أَلَا إِنَّمَا لَيْلِي عَصَا خَيْرِ زُرَانِهِ      إِذَا غَمَزُوهُمَا بِالْأَكْفِ تَلِينُ

فقال : والله لو زعم أنها عصا مُخَّ أو عصا زُبْدٍ ، لقد كان جعلها جافية خشنة بعد أن جعلها عصا ، ألا قال :

وَدَعَجَاءَ الْحَاجِرِ مِنْ مَعَدِّ      كَأَنْ حَدِيثَهَا ثَمَرُ الْجِنَانِ  
إِذَا قَامَتْ لِمِشِيَّتِهَا تَنَنَّتْ      كَأَنْ عِظَامِهَا مِنْ خَيْرِ زُرَانِ<sup>(٢)</sup>

ومعنى ذلك أن بشارا كان يستغل صور الغزل القديم ، وكان يستغل أيضاً معانيه ، ومن خير ما يصور ذلك وقوفه عند طول الليل والسهاد فيه الذي طالما ذكره الجاهليون والإسلاميون ، فقد عرضه في معارض مختلفة ، تارة يقول<sup>(٣)</sup>:

النَّجْمُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ      أَعْمَى تَحْيِيرَ مَا لَدَيْهِ قَائِدُ

ويقول تارة ثانية<sup>(٤)</sup> :

خَلِيلِي مَا بِالِ الدُّجَى لَيْسَ يَبْرَحُ      وَمَا بِالِ ضَوْءِ الصَّبْحِ لَا يَتَوَصَّحُ  
أَضَلَّ الصَّبَاحُ الْمَسْتَنِيرُ طَرِيقَهُ      أَمْ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ

ويقول تارة ثالثة<sup>(٥)</sup> :

كَأَنَّ جَفْسُونَهُ سُمِّلَتْ بِشَوْكٍ      فَلَيْسَ لِنُودِهِ فِيهَا قَرَارُ

المنزى للكبرى ( طبعة الحلبي ) ٧٢/٢ .

(٤) الديوان ١٠٤/٢ .

(٥) الديوان ٢٤٩/٣ .

(١) أغاني ١٥٠/٣ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٥٤/٣ .

(٣) انظر النبيان : شرح ديوان أبي الطيب

أقول وليتني تزداد طولا  
جفت عيني عن التغميض حتى  
أما ليل بعدهم نهار  
كأن جفونها عنها قصار

وعلى هذه الشاكلة لا يزال يدبر المعاني القديمة في ذهنه ويولد منها ويستخرج طرائف رائعة ، وعلى الرغم من أنه كان مكفوفاً كان يحسن الوصف حتى ليقول الأصمعي : « إنه ما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يُشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره ، فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله <sup>(١)</sup> » ومن وصفه البديع لإحدى المغنيات قوله <sup>(٢)</sup> :

وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش  
تصلى لها آذاننا وعيوننا  
جرى اللؤلؤ المكنون فوق لسانها  
إذا قلدت أطرافها العود زلزلت  
كأنهم في الجنة قد تلاحقت  
يروحون من تغريدها وحديثها  
لعوب بألباب الرجال وإن دنت  
أطبع التقي والغنى غير مطاع

وفي كل مكان من غزله نجد أثر الحضارة في رقة حسه ، سواء حين يصف حينه وحرمانه وصدود محبوباته أو حين يصور لقاءه لمن ووداعهن أو ذكرياته معهن على شاكلة قوله <sup>(٦)</sup> :

لقد كان ما بيني زماناً وبينها  
وقوله <sup>(٧)</sup> :

عندها الصبر عن القائي وعندى  
ولعل في كل ما قدمنا ما يوضح كيف كانت صنعة بشار في شعره تقوم على

(٥) الصواع هنا : الحام يشرب فيه .  
(٦) أمال المرتضى ٦٤/٢ والديوان ٣١٤/٢  
(٧) الديوان ٢٧٢/٢ .

(١) أغاني ١٤٢/٣ .  
(٢) أمال المرتضى ١٣٩/٢ .  
(٣) يراع هنا : زممار .  
(٤) اليفاع : المرتفع من الأرض .

الموازنة الدقيقة بين العناصر التقليدية في الشعر العربي والعناصر التجديدية المستمدة من الحضارة والثقافة المعاصرة . وثبتت بشار هذه الطريقة بحيث أصبحت منهجاً عاماً للشعراء من بعده ، وبحيث عدّ بحق زعيم المجددين ، فهو الذي نهج لهم هذا النهج من التطور بالشعر العربي تطوراً لا تنقطع الصلة فيه بين حاضره وماضيه .

## ٦

## صنعة أبي نواس

اسمه الحسن بن هاني ، وُلد بالأهواز سنة تسع وثلاثين ومائة ، وكان أبوه مولى<sup>(١)</sup> لآل الحكم بن الجراح من بني سعد العشيرة اليمينيين ، قدم إلى هذه البلدة مع جند مروان بن محمد ، وتزوج بها جارية فارسية أهوازية تدعى جُلْبَان ، كانت تغسل الصوف ، وأولدها عِدَّةٌ ، منهم أبو نواس ، الذي تلقن الفارسية عنها وحلقها . ومات هاني وابنه صغير ، فانتقلت أمه إلى البصرة ، وهو ابن ست سنين ، فأسلمته إلى الكُتَّاب ، ولم يلبث أن اختلف إلى دروس العلماء حين شبَّ عن الطوق ، ويظهر أن رقة حال أمه اضطرتها إلى أن تلحقه بعطار ، فكث عنده مدة ، وملكته الشعرية تتفتح في نفسه . وتصادف أن عامل الأهواز دعا هذا العطار إليه ، فصحب معه الغلام ، وكان والبة بن الحُباب يزور هذا العامل لقراءة بينهما ، فتعرّف على أبي نواس ، وكان ضئيلاً صبيحاً ، وأعجب كل منهما بصاحبه ، وأسلم أبو نواس إليه قياده ، فاصطحبه معه إلى الكوفة حيث غمسه في كل ما كان ينغمس فيه مع رفاقه أمثال مطيع بن إلياس ، فخرج ماجئاً على طريقةتهم ، وهي طريقة لم تكن تخلو من شذوذ<sup>(٢)</sup> . ويعود إلى البصرة ويلزم خلفاً الأحمر ويحمل عنه علماً كثيراً وأدباً واسعاً ، ويتعلق بجنان جارية

بغداد ٤٤٠/٧ والديوان ٣٦ - ٣٢ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٤ .

(٢) العدة لابن رشيح ٤٣/١ ، وتاريخ

الثقفين ، فتزورُ عنه ، لسوء سلوكه ، وينظم فيها كثيراً من غزاه ، وتجذبه بغداد فيتحول إليها ويقدمه إسحق الموصلي إلى الرشيد ، ولا يلبث أن يغضب عليه فيُسْجَن ، لما يلجج فيه من عصبية مسرفة لمواليه القحطانيين<sup>(١)</sup> . ويترك باب البرامكة في أثناء ذلك ، فيحول بينه وبينهم أبان بن عبد الحميد ، ويدخلان في معركة هجاء عنيفة ، كان أبو نواس هو الذي يكثر فيها من السهام<sup>(٢)</sup> ، ويظهر أن أبواب الفضل بن يحيى البرمكي فتحت له ، بينما ظل جعفر أخوه منقبضاً عنه ، فهجاه بينما مدح الفضل مدائح رائعة . ولما أوقع الرشيد به وبأخيه وأبيهما سنة ١٨٧ للهجرة حزن أبو نواس ، ورحل إلى مصر لغرض الترويح عن نفسه ، فمدح والى الخراج بها الحبيب بن عبد الحميد وكان فارسياً . ولم يطب له المقام وحنَّ إلى بغداد ، فقدم عليها بعد وفاة الرشيد ، واستقبله الأمين استقبالا حافلا ، وناداه ، فلاكته الألسنة ، ويقال إن المأمون حين خلع أخاه ووجهه بظاهر بن الحسين لمحاربه كان يكتب كتباً تُقرأ على المنابر بخراسان يذكر فيها عيوبه وكان مما عابه به أن قال : « إنه استخلص رجلا شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هانئ واستخلصه ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ، ويهتك المحارم<sup>(٣)</sup> » . ويقال إن الأمين حبس أبا نواس زمناً لخلاعه ، ويقال بل حبسه الفضل بن الربيع وزيره ، وفي أشعاره ما يدل على هذا الحبس<sup>(٤)</sup> ، على أن الأجل لم يطل به ، فقد توفى قبل دخول المأمون بغداد ، وتختلف الروايات في سنة وفاته ، هل كانت سنة ١٩٥ أو سنة ١٩٩ كما تختلف في سببها<sup>(٥)</sup> .

وتدل نصوص مختلفة على أن أبانواس في أثناء مكثه في الكوفة والبصرة كان

- 
- (١) انظر في ذلك طبقات الشعراء ص ١٩٥ - ٢٠٠ وأخبار أبي نواس ص ١٥٥ وما بعدها .  
 (٢) طبقات الشعراء ص ٢٠٢ ، ٢٤١ ، والأغاني ( طبعة الساسي ) ٧٣/٢٠ والحيوان ٤٤٨/٤ والديوان ص ١٨٠ .  
 (٣) زهر الآداب ١١١/٢ .  
 (٤) زهر الآداب ١١١/٢ - ١١٢ .  
 (٥) أخبار أبي نواس ص ٩٧ وانظر طبقات الشعراء ص ١٩٤ .

يختلف إلى حلقات اللغويين وخاصة حلقة خلف<sup>(١)</sup> ، وهو الذى دفعه إلى حفظ مئات الأراجيز ، ويقال إنه خرج إلى البادية سنة ، لينهل من ينابيع اللغة الأصلية . ولم يختلف أبو نواس إلى حلقات اللغويين وحدهم بل اختلف أيضاً إلى حلقات الفقهاء والمحدثين<sup>(٢)</sup> والمتكلمين ، حتى قالوا إنه بدأ حياته متكلماً ثم نظم الشعر<sup>(٣)</sup> ، ومر بنا في غير هذا الموضع كيف كان يجلب إلى شعره ألفاظ المتكلمين ومصطلحاتهم .

ولعلنا بذلك كله نستطيع أن نعرف مكونات شخصيته الأدبية ، وهي تقرب من مكونات بشار ، فقد ألم بثقافات عصره إلاماً واسعاً وورث عن الفرس حدة مزاجهم وأخذت البيئة الماجنة توجب هذه الحدة ، بكل ما أخذه عن والبة وأضرابه ، حتى لنجده يخطو في الفسق والخجون خطوات بالقياس إلى بشار ، إذ أخذ يتغنى بالغلغان ، وكأنا لم تكفه الجوارى ، وإن كان ابن المعتز يلاحظ أنه كان يكثر من ذلك تمويهاً وخداعاً عن فسقه الحقيقي بالجوارى والإماء<sup>(٤)</sup> ، وربما كان لما اتهم به من شذوذ أثر في ذلك فاندفع يعلن على رؤوس الأشهاد كذب ما يقال عنه ، ومن ثم قد يكون من الخطأ أن نبالغ في تصوير هذه الوصمة عند أبي نواس وأن نبحت تفسيته على أساسها .

على أن من الممكن أن تكون مجاهرة أبي نواس بغلامياته ضرباً من النظرف والدعابة كان يسوقه في مجالس جماعته الماجنة من أمثال الخاركى وأبى يعقوب التمار وأبى هفان والحسين بن الضحاك الخليع<sup>(٥)</sup> ، ويشهد معاصروه بأنه كان ظريفاً يجلب الناس بظرفه وكثرة مَلَحِه<sup>(٦)</sup> . وهو في ذلك يختلف عن بشار ، فيشار في مزاحه جيداً وصرامة ، أما أبو نواس فليس فيه من الجِدِّ والصرامة شىء

- 
- (١) طبقات الشعراء ص ١٩٤ ومن قول  
أبى نواس في رثائه .  
كنا متى ما نذن منه نقرّف
- (٢) نفس المصدر ص ٢٧٢ .  
(٣) طبقات الشعراء ص ٣٠٩ .  
(٤) انظر تراجمهم في طبقات الشعراء وصلتهم  
بأبى نواس .  
(٥) طبقات الشعراء ص ١٩٥ .  
(٦) رواية لا تجتنى من الصحف  
طبقات الشعراء ص ٢٠١ .

وكان يشعر بذلك في نفسه ، بل كان يتخذ إليه كل وسيلة حتى ليقول<sup>(١)</sup> :

أَتَبِعَ الظرفاءَ أَكْثَبَ عَنْهُمْ كَيْمَا أَحَدَتْ مِنْ أَحَبِّ فُيْضَحْكَا

وجعله هذا الجانب قريباً إلى أهل عصره من خلفاء ووزراء، فكانوا يرسلون في طلبه إلى مجالسهم فيفاكههم ويسوق لهم نوادر تضحكهم ، وأعل ذلك ما جعله يتحول في بعض القصص إلى شخصية مضحكة ، وهي وظيفة كان يقوم بها أبو دلامة معاصره . لكن لا شك أن الناس في بغداد كانوا يتناقلون عنه نوادر كثيرة أعدت لنمو شخصيته القصصية المضحكة مع مر الزمن . ومما يدخل في هذا الباب ورواه الجاحظ عنه أن مجنوناً موسوساً يسمى أبا الحاسب كان يهذى بأنه سيصير ملكاً وأنه ألهم ما يحدث في الدنيا من الملاحم فكان أبو نواس يقول أشعاراً على لسانه ، وما يزال يوردها على سمعه له حتى يحفظها ، وكان يتحدث فيها عما سيقع عبثاً ودعابة ، ويروى الجاحظ قطعة من تلك الأشعار<sup>(٢)</sup> .

ومثل هذه الشخصية ينبغي أن نتأنتى في الحكم عليها وأن لا نظن أن كل ما تنظمه يصور نفسيها أو وقائعها ، فكثير منه نُظْمَ نظرفاً ودعابة وعبثاً ، ونستطيع أن نضع في هذا الجانب من التعابث أطرافاً مما في شعره من شعوبية وزندقة وخروج على الإسلام من مثل قوله السابق<sup>(٣)</sup> :

يا ناظرا في الدين ما الأمرُ ؟ لا قدرُ صحَّ ولا جبَّيرُ

ما صحَّ عندي من جميع الذي تذكر إلا الموت والقبر

وقوله<sup>(٤)</sup> :

يا أحمدُ المرْتَجى في كلِّ نائبةٍ فمُ سيئدي نعصِ جبَّارَ السمواتِ

ومثل هذا كثير في ديوانه ، ولا نشك في أنه كان ينظمه أثناء معاقبته للخمر هزلاً وفكاهة . وأيضاً لا بد أن نلاحظ شيئاً آخر هو كثرة ما حمل عليه من شعر الخمر والحجون ، يقول ابن المعتز : « إن العامة الحمقى قد لهجت بأن

(١) الحيوان للجاحظ ٧٥/٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢٢٨/٢ .

(٣) انظر الوساطة ص ٦٣ والموشع

ص ٢٧٧ .

(٤) الديوان ص ٢٥٠ .

تنسب كل شعر في المحنون إلى أبي نواس وكذلك تصنع في أمر مجنون بنى عامر ، كل شعر فيه ذكر ليلي تنسبه إلى المحنون<sup>(١)</sup> . ولا نبالغ إذا قلنا إن دواوين الحسين بن الضحاك الخليع ونظرائه من المحنّان تلك التي فُتحت قد دخلت في ديوان أبي نواس . لذلك يكون من الخطأ أن نحمل عليه كل ما جاء في ديوانه وإن كنا بعد ذلك لا ننفي عنه جملة خمرياته وغزلياته العابثة فكثير منها روي عند الجاحظ وابن المعتز وأضرابهما من النقاد الأثبات ، ومن المؤكد أنه كان ماجناً عابثاً على فكاكة فيه . وأقوى ما تتجلى ملكة الشعر عنده في خمرياته ، وكان يحتذى فيها على مثال الوليد بن يزيد<sup>(٢)</sup> ، وقد استشهدنا فيما أسلفنا بأمثلة منها عنده ، وطرائفها عند أبي نواس أكثر من أن تستقصى ، إذ كان يعرف كيف يولد في المعاني وكيف يستخرج دقائنها ودقائقها ، كما كان يعرف كيف يأتي بالصور النادرة من مثل قواه<sup>(٣)</sup> :

وكنسوسٍ كأنهنَّ نُجُومٌ      جارياتٌ برُوجُها أيدينا  
طلالعاتٌ مع السقاة علينا      فإذا ما غرَبْنَ يغربن فينا

وقوله<sup>(٤)</sup> :

وكأسٍ كصباح السماء شربتها      على قَسْبَلَةٍ أو موعِدٍ بِلِقَاءِ  
أنتَ دونها الأيامُ حتى كأنها      تساقطُ نورٍ من فتوقِ سماءِ  
وهو على هذه الشاكلة في غزله أيضا ، إذ كان يعرف كيف ينوع في معانيه ، وكيف يستمد من أوعية القديم في الحنين والصدِّ والإعراض والدلال ما تتلأأ فيه خواطره وتتألق فيه أحاسيسه . وكان ينحو في غزله منحى سهلاً ، حتى لتصبح بعض غزلياته أسلس على اللسان من الماء العذب ، من مثل قوله الذي مرَّ بنا<sup>(٥)</sup> :

حاملُ الهوى تَعَبٌ      يستخفُّه الطَّرَبُ  
إن بكى يحقُّ له      ليس ما به لَعِبُ

وهو في غزله بالغلطان ينحو كثيراً منحى التعابث والمزل ، ولعل ذلك

(١) طبقات الشعراء ص ٨٩ .  
(٢) اغاني ( طبعة دار الكتب ) ٢٠/٧ .  
(٣) الديوان ص ٣٣٩ .  
(٤) الديوان ص ٦٣ .  
(٥) معاهد التنصيص والديوان ص ٣٦١ .

ما جعله يحشد فيه كثيراً من ألفاظ العامة ، وخاصة إذا كان الغلام أعجمياً ، فإنه يستحلفه بآلهة العجم وبكتبهم المقدسه وما يؤلهون من كواكب ويقدمسون من كهنة النار ، ويسوق له في أثناء ذلك كلمات أعجمية كثيرة . وكان في هجائه كغزله بالغلماں يتعايب ويتماجن ، وأحياناً يجد ، فيرعى بالزندقة ويقذف في الأعراض على شاكلة بشار . وهجاؤه الأول أخف ، ومن أمثله هجاؤه لإسماعيل بن نَيْبِخْت ، وكان يرتعى على مائدته ، ولكنه لم يسلم من عبثه ، فقال فيه <sup>(١)</sup> :

خَبِرْزُ إِسْمَاعِيلَ كَالْوَشِّ إِذَا مَا شُقَّ يَرْفَا

وقال أيضاً <sup>(٢)</sup> :

على خَبِرْزِ إِسْمَاعِيلِ وَاقِيَةَ الْبُخْلِ      وقد حلَّ في دار الأمان من الأكلِ  
وما خَبِرْزُهُ إِلَّا كَأَوَى بَرَى ابْنِهَا      ولم تُرْ آوَى فِي الْحَزْنِ وَلَا السَّهْلِ  
وما خَبِرْزُهُ إِلَّا كَعَسَقَاءِ مُغْرِبٍ      تُصَوِّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ  
يحدث عنها الناس من غير رؤيةٍ      سوى صورةٍ ما إن تَمِرُّ وَلَا تُحَلِي

وكان يتوقَّر في مديحه وشعره الرسمي ، ويختار له إطاراً جزلاً قويماً متيناً ، يقدم له بوصف الصحراء على طريقة القدماء ، وقد وصف في قصيدته التي مدح بها الحصيب رحلته من بغداد إلى القسطنطينية ، وهي التي يقول فيها <sup>(٣)</sup> :

فأجازه جودٌ ولا حبلٌ دونه      ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ

وكان يحنح في مديحه إلى المبالغة والإسراف على نفسه في الارتفاع بالمدحجين عن البشر ، حتى ليقول في الرشيد <sup>(٤)</sup> :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه      لتخافك النُطْفُ التي لم تُخلَقِ

ويقول في الأمين - إن صحَّ أنه له - مستغلاً طريقة المتكلمين <sup>(٥)</sup> :

ألا يا خير من رأيت العيونُ      نظيرك لا يُحسُّ ولا يكونُ

(٤) الديوان ص ٦٢ .

(٥) الديوان ص ١١٦ ونسب ابن المعتز الأبيات للنظام . انظر طبقات الشعراء

ص ٢٧٢ .

(١) الديوان ص ١٧٢ .

(٢) الحيوان ١٢٩/٣ والديوان ١٧١

وأخبار أبي نواس ١٢٧ .

(٣) الديوان ص ٩٨ .

وفضلك لا يُحَدُّ ولا يُجَارَى      ولا تحوى حيازته الظنونُ  
خلقت بلا مشاكلةٍ لشيءٍ      فأنت الفوقُ والثقلانُ دونُ

ويقول في الفضل بن يحيى البرمكي<sup>(١)</sup>:

أوحدهُ اللهُ فما مثلهُ      لطالبٍ ذاك ولا ناشدٍ  
وليس على الله بمُسْتَنَكِرٍ      أن يجمع العالم في واحدٍ

وبذلك كان من أوائل من أعدوا لاتساع المبالغة في المديح العباسي ، ومضى الشعراء من بعده ببالغون ، حتى رفعوا ممدوحهم إلى مرتبة الآلهة .

وربما كان ، مما يتصل بهذا الفن التقليدي : فن المديح عنده ، استخدامه للرجز ، وخاصة في طردياته ، وهو فيها يتفوق تفوقاً متقطعاً النظير ، وقد أشاد بها الجاحظ إشادة رائعة على ما مرَّ في غير هذا الموضع . وبينما نراه يعنى بصناعته اللفظية في المديح والرثاء نراه يفرط في السهولة حين يتغزل ، وكان ينظم كثيراً في أوزان المَجْتَثِ والمَقْتَضِبِ والمتدارك وما يشاكلها من البحور المحزوءة ، معبراً عن أحاسيس الحب ، وملاًئماً بينها وبين الغناء الذي عاصره . وله شعر في الزهديات ربما نظمه مجازة لأبي العتاهية وأمثاله ممن كان تروج أشعارهم في العامة ، أما الزعم بأنه كَفَّ في آخر حياته عن الملاذ فهو زعم باطل<sup>(٢)</sup> ، إنما تلك كانت لحظات صغورٍ تعزيره من حين إلى حين . ومن بديع ما نظمته في هذه اللحظات قوله<sup>(٣)</sup> :

ياربَّ وجهه في التراب عتيقٍ      وياربَّ حُسنٍ في التراب رقيقٍ  
فقل لقريب الدار إنك راحلٌ      إلى منزلٍ نأى المحل سحيقٍ  
وما الناس إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ      وذو نَسَبٍ في الهالكين عريقٍ  
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفتُ      له عن عدوِّ في ثياب صديقٍ

وواضح مما قدمنا أن صنعة الشعر عند أبي نواس كانت تعتمد اعتماداً شديداً على الإطار القديم في المديح والرثاء وما يشبههما ، بينما كانت تنفك من هذا الإطار

(٣) الديوان ١٩٢ .

(١) الحيوان ٦٣/٣ وما بعدها .

(٢) انظر في ذلك طبقات الشعراء ص ١٩٤ .

أحياناً في الغزل والخمريات ، وقد تظلل له قوة البناء فيهما ، وتظلل له روعة التصوير ودقة العاطفة ، وقد يهبط وخاصة حين يتعابث ويهزل إلى لغة العامة وإلى أسلوب ليس فيه شيء من قوة ، كان يعتمد فيه إلى اللحن أحياناً<sup>(١)</sup> . ولعل ذلك ما جعل بعض القدماء يقول عنه ، وهو قول صحيح : « إنه كان لا يقوم على شعره ويقوله على السكر كثيراً ، فشعره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو في الشرياً جودة وحسناً وقوة وما هو في الخفيف ضعفاً وركاكة<sup>(٢)</sup> » . على أنه ينبغي أن لا ننسى أن شعراً كثيراً منتحلاً أضيف إليه ، حتى لنجد موشحة ميثوقة بين أشعاره في ديوانه<sup>(٣)</sup> ، والمشهور أن الموشحات ظهرت بعده بقرن على الأقل ، ولم تظهر في المشرق وإنما ظهرت في الأندلس وظلت هناك طويلاً قبل أن تنتشر في العالم العربي . ولعل في ذلك ما يدل على أن العصور التالية لعصر أبي نواس ظلت تضيف إليه كثيراً من الأشعار ، ولم تتورع أن تضيف إليه بعض الموشحات وكان أهم باب نفذوا منه إلى ذلك باب المجون والأدب المكشوف .

## ٧

## صنعة أبي العتاهية

هو إسماعيل بن القاسم ، كان أبوه من موالى بني عَنَزَةَ ، وكانت أمه بنت زياد الحاربي أحد موالى بني زُهْرَةَ ، وقد وُأد لهما سنة ١٣٠ للهجرة في قرية عين التمر بالقرب من الأنبار غربي الكوفة . وَيُظَنُّ أن القاسم كان نبطياً ، وقد كان بحترف الحجاماة ، وانتقل - على ما يظهر - بأسرته إلى الكوفة فنشأ بها أبو العتاهية . ولما ترعرع احترف مع أخيه زيد بيع الخزف ، ولم تلبث مواهبه الشعرية أن استيقظت في نفسه ، فكان ينشد من يشرون منه

(١) انظر ترجمته في الموشح المرزباني . (٣) الديوان ص ٢٤٦ .

(٢) طبقات الشعراء ص ١٩٥ .

الجرار شعره ، فيعجبون به وينتقشونه على جِراهم<sup>(١)</sup> . ولم يطل به الأمر حتى انصرف عن بيع الخزف ، ولزم الخنثين من شباب الكوفة ، ولبس ملابسهم<sup>(٢)</sup> وانظم في سلك المُجَنَّان من أمثال مطيع بن إياس . وتعرّف في أثناء ذلك على لإبراهيم الموصلي مغنى المهدي والرشيد فيما بعد ، وانفقاً على الرحيل إلى بغداد ، غير أن الأبواب فيها لم تفتح له ، فعاد أدراجه إلى الخيرة<sup>(٣)</sup> ، وتعلق فيها بجارية لبني معن بن زائدة كانت نائحة ولها حسن وجمال ، ولكن موالها حالوا بينها وبينه<sup>(٤)</sup> . وأخذ شعره فيها يذيع ، فاستدعاه الموصلي ووصله بالمهدي فدحه ونال جوائزه السنية . وحدث أن رأى جارية من جواري القصر هي عتبة ، وكانت من جواري رائطة بنت السَّمَّاح زوج المهدي ، فوقعت في قلبه وأخذ يتغزل فيها غزلاً كثيراً ، وبلغ المهدي ذلك فغضب لتعرضه لِحُرْمته وأمر بحجسه ، وشفع فيه خاله يزيد بن منصور حتى خلّصه ، فعاد إلى مثل حاله معها ، فتدخلت رائطة ، وأثارت حفيظة المهدي عليه ، فأحضره وضربه بالسياط في الدواوين بين يديه . غير أنه عاد فرقاً له ، ووعده أن يستوهبها من مولاتها ويدفعها إليه . وعلمت بذلك عتبة ، وكانت تزدر به على نحو ما كانت تزدرى جنان أبا نواس ، فاسترحمت المهدي واستجارت به ، وقالت إنه غير عاشق ، إنما يريد الذكر والشهرة بتغنيه في وامتحنه بمال ذي خطر ، فإنه سيلهبه عنى ويشغله عن ذكرى ، فأمر له المهدي بمائة ألف ، ولم يُسمِّ دراهم ولا دنانير ، وأعطاه صكاً بذلك ، فكان كلما حاول أن يصرف الصكّ قدمه له الموظفون بالدواوين دراهم ، فكان يأبأها . وظل شهراً مطالِباً بالدنانير ، ونسى عتبة وذكرها فأشرفت عليه يوماً وقالت : « يا صفيق الوجه لو كنت عاشقاً لشغلك العشق عن المفاضلة بين الدراهم والدنانير . وبلغ كلامها المهدي ، فعلم أنها كانت أعرف بقصة الرجل ، فأمسك عن أمره<sup>(٥)</sup> . غير أنه ظل يقربه منه ، وتبعه الهادي والرشيد يسيران معه نفس السيرة ، ويقال إنه

(١) انظر الأغاني (طبعة دار الكتب) ٩/٤ وقد ترجم له أبو الفرج ترجمة ضافية في هذا الجزء .  
 (٢) أغاني ٧/٤ .  
 (٣) أغاني ٤/٤ .  
 (٤) أغاني ٢٤/٤ .  
 (٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٠ وانظر زهر الآداب ٣٥/٢ .

لم يكن يفارق الرشيد في سفر ولا في حضر<sup>(١)</sup> .

ولا تمضى طويلاً في عصر الرشيد ، حتى نرى أبا العتاهية يتسلك ويلبس الصوف ويزهد ويترك حضور المنادمة والقول في الغزل ، ويُحضره الرشيد ويأمره أن يعود إلى ما كان عليه . فيمتنع ، فيضربه ستين سوطاً ويأمر بحجسه . وينظم أشعراً كثيرة يستعطفه ، وتُسْتَمَلُ إلى الرشيد . وكان مما نظمها قوله<sup>(٢)</sup> :

أما والله إن الظلم لُدومٌ وما زال المُسِيء هو الظلومُ  
إلى دَيَّان يوم الدين تمضى وعند الله تجتمع الخصوم

فعمطف عليه الرشيد وأطلق سراحه ، وتصادف أن انقبض عن الدنيا وغشيتها سحابة من الحزن بعد فتكه بالبرامكة ، فكان يستريح إلى أشعار أبي العتاهية الجديدة في الزهد ، ويفسح له في مجالسه ونزهاته . ولما تحولت مقاليد الأمور إلى المأمون كان يقرُّ به منه ويصله<sup>(٣)</sup> ، ويستحسن شعره ، إلى أن توفي سنة عشر ومائتين وقيل بل سنة إحدى عشرة وقيل بل ثلاث عشرة . وواضح أن انقلاباً حدث في حياة أبي العتاهية ، فتحول مما كان يأخذ فيه مع شعراء بغداد لعصره من لهو ومجون إلى زهد في الدنيا ومتاعها الزائل ، وكاد يقصر شعره على ذلك . ولم يلبث معاصروه أن تساءلوا هل هذا الزهد مردُّه إلى تقوى حقيقية ، أو مرده إلى زنادقة ومانوية فهو يستمد فيه من ماني والزنادقة على شاكلة صالح بن عبد القدوس وأضرابه ممن كانوا ينزعون في زهدهم منزعاً مانوياً؟ . وتعرض له حمدويه صاحب الزنادقة يريد أن يثبت التهمة عليه ، فقعد حجاً أهلاً في الطريق ، يحججيم الفقراء والمساكين<sup>(٤)</sup> وحامت حوله شبه كثيرة ، وقيل إنه يقننت للقمر ويبتهل له ابتهاج المانوية<sup>(٥)</sup> ، وشنَّع عليه واعظ كبير من وعاظ بغداد ، هو منصور بن عمار ، فقال إنه زنديق<sup>(٦)</sup> ، وقال كثيرون إنه لا يؤمن بالبعث<sup>(٧)</sup> . ويقول ابن المعتز في

(٥) أغاني ٣٥/٤ .  
(٦) أغاني ٣٤/٤ ، ٥١ .  
(٧) أغاني ٢/٤ .

(١) أغاني ٦٣/٤ .  
(٢) أغاني ٥١/٤ .  
(٣) أغاني ٥٣/٤ وما بعدها .  
(٤) أغاني ٧/٤ .

ترجمته إنه « يُرْمَى بالزندقة مع كثرة أشعاره في الزهد والمواعظ وذكر الموت والحشر والنَّار والجنة<sup>(١)</sup> ، والذي يصح لى أنه كان ثنويًّا » ويقول في ترجمة ابنه العتاهية : « كان أبوه خبيث الدين ، يذهب مذهب الثنوية ، إلا أنه كان ناسك الظاهر<sup>(٢)</sup> . وفي الأغاني أنه كان ينظم شعراً يدل على توحيده لينفى تهمة الزندقة عنه ، من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

ألا إننا كلنا بئسُ      وأى بنى آدمُ خالدُ  
وبدوهمُ كان من ربِّهم      وكلُّ إلى ربِّه عائسُ  
فيا عجباً كيف يُعصى إلا      هُ أم كيف يوحده الجاحدُ  
وفي كل شيء له آيةٌ      تدلُّ على أنه واحدُ

ولو أننا وصلتنا أشعاره كاملةً لأمكن الحكم عليه حكماً دقيقاً ، غير أن ما طُبع من شعره ونُشر باسم « الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية » إنما هو اختيارات فقيه أندلسي ، اختارها بدوقه الديني السليم ، ولعل ذلك ما يجعلها تتضارب مع ما يقال عن الشاعر من أن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد<sup>(٤)</sup> ، فالمعاد والنشور مبثوثان في اختيارات الفقيه ، بحيث يمكن أن يقال إن هذه التهمة غير صحيحة. وإن كنا في الوقت نفسه نشك في أن تكون صورة هذه المختارات ضابطة لحقيقة زهدياته فقد يكون فقيه اختار من ديوانه تلك الأشعار التي كان ينظمها بتغطية وتعمية لحقيقة أمره . ولا يشك من يقرأها في أن فكرة الموت ومصير الإنسان في حياته كانت هي شغله الأول ، فقد دار عليها أكثر تلك الزهديات . وفي الأغاني نصٌّ مهم عن أحمد بن حرب ، يقول فيه : « كان مذهبُ أبي العتاهية القولَ بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادَّين لا من شيء ، ثم إنه بنى العالم هذه السنية منهما . . وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفتى الأعيان جميعاً . . وكان مجبراً<sup>(٥)</sup> . » . وكأنه حاول بذلك أن يوفق بين نظرية الإسلام في التوحيد ونظرية المانوية في أن

(٤) أغاني ٤ / ٣ .

(٥) أغاني ٤ / ٥ .

(١) طبقات الشعراء ص ٢٢٨ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٣٦٤ .

(٣) أغاني ٤ / ٣٥ والديوان ص ٦٩ .

هناك إلهين إلهما للنور والخير وإلهما للظلمة والشر ، وللخير أجناسه وللشر أجناسه ، وقد بُنى منهما العالم . ونجد في شعره القليل الذى وصلنا ما يؤكد أنه كان حقاً يرى هذه النظرية ، ويعتمدها من مثل قوله<sup>(١)</sup> :

الخير والشر هما أزواجُ      لذا نتاجُ      ولذا نتاجُ  
لكل إنسان طبيعتان      خيرٌ وشرٌّ      وهما ضدَّان  
والخيرُ والشرُّ إذا ما عُدَّا      بينهما      بونٌ بعيدٌ جدًّا

فهو في زهده كان يتصل بالمانوية كما شهد معاصروه وكما تشهد أشعاره ، وقد مرّ بنا أن مثال الزاهد عنده هو نفس مثاله عند الهنود ، وهو بوذا الذى فرّ عن ملكه وساح مسكيناً يفكر في ملكوت السموات والأرض . فزهدُ أبي العتاهية لم يكن زهداً إسلامياً خالصاً ، بل كانت تشوبه عناصر أجنبية .

وإذا رجعنا إلى شعره الذى روته المنتخبات المنشورة له بالاسم « الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية » وما روته له كتبُ الأدب من مثل الأغاني وجدنا أشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انقلاب ، إذ يترأى لنا في مرحلتين واضحتين تمام الوضوح : مرحلة أولى نراه فيه على شاكلة الشعراء المعاصرين له الذين يُجبرون شعرهم في تصوير اللهو والمجون ومجالس الأُنس والطرب . ولا نجد في أخباره أنه تبدّى أو دخل في البادية كما صنع بشار وأبو نواس ولا أنه لزم كبار اللغويين أمثال خلف الأحمر . وكأنه استقى شعره من القطع العباسية الجديدة التى كان يعنى فيها المغنون ، ولم يحاول التزود تزوداً واسعاً بالتراث القديم ، ولذلك قلما نجد عنده ضخامة البناء وما يُطوَى فيها من أسلوب جزل رصين ، وهو من هذه الناحية يقرب اقتراباً شديداً من اللغة اليومية التى عاصرها ، حتى في مديحه وشعره الرسمى الذى كان يكتفى به الخلفاء ، وخير ما يمثله قصيدته اللامية في المهدي ، وهى التى يستهلها بقوله :

ألا ما لسيّدتى ما لها      أدلاً فأحملُ إدلالها

(٢) أغاني ٣٣/٤ والديوان ص ٣٠٩

(١) أغاني ٣٧/٤ والديوان ص ٣٤٦ .

وإلا فسيم تجنّت وما جنّيت سقى الله أطلالها

ويستمر في هذا الأسلوب السهل العذب حتى ينتقل إلى المديح فيقول :

أنته الخلافة منقادة إليه تُجرّر أذيالها  
ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها  
ولو رامها أحد غيره لزُلزلت الأرض زلزالها  
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قيل الله أعمالها  
وإن الخليفة من بغض لا إليه ليُبغض من قالها

وواضح أنه يختار لمديحه أسلوباً خفيفاً يجعله قريباً إلى النفوس ، وهو في ذلك يخطو بعد بشار خطوة ، فقد كان بشار يحافظ في مدائحه على الأسلوب الجزل القوى ، وكذلك كان يصنع أبو نواس غالباً ، أما أبو العتاهية فالترمز هذا الأسلوب اليسير لافي غزلياته شأن أبي نواس بل أيضاً في مدائحه ، وهي سهولة تقترن بموسيقى صافية حلوة يبدو الشعر فيها كأنه أنغام خالصة . وتبلغ هذه السهولة الغاية في غزله ، حتى ليقول ابن المعتز « غزله ابن جدّاً مشاكل الكلام النساء » . وكان ملازمته للمدحنيين في مطلع حياته وتعرفه على لغتهم هما اللذان أتاحا له هذه السهولة المفرطة التي تلقانا في مثل قوله (١) :

كأنها من حسنها درة\* أخرجها اليم إلى الساحل  
كأن في فيها وفي طرفها سواحراً أقبان من بابل  
لم يبق مني حبها ما خلا حشاشة في بدن ناحل  
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شاة الوجد على القتائل

والرقة واضحة في هذه الأبيات ، وهي تقع من القلوب موقع الزلال البارد من الظمان ، وكأنها الماء السلسيل .

وانتقل أبو العتاهية بهذا الأسلوب السهل الممعن في سهولته إلى الدور الثاني من حياته دور الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها ، والتفكير

في الموت وظلمة القبر ووحشته، ويسود زهدياته في أثناء ذلك تشاؤم أسود حزين،  
فالحياة ليس فيها إلا الألم وإلا الموت وغصصه، وأولى بالإنسان فيها أن لا يفرح  
بمتعتها، بل أولى به أن يبكي على نفسه، يقول<sup>(١)</sup>:

لدواعي الخير والثَّاءِ      مرّ دنوّ ونزوحُ  
سيصير المرءُ يوماً      جسداً ما فيه روحُ  
بين عيني كلَّ حَيٍّ      علمُ الموت يبلوح  
كلنا في غفلةٍ وإلا      موتٌ يغدو ويروح  
نُحْ على نفسك يأمسُ      كين إن كنت تنوح  
لتموتنَّ وإن عمَّ      رتَ ما عمَّر نوح

ويقال إن الملاحين غَتَّوا الرشيد هذه المقطوعة في إحدى زهاته بدجلة، فلما  
سمعها جعل يبكي وينتحب<sup>(٢)</sup>. وفي هذا الخبر ما يدل على قرب شعره من روح  
الشعب، إذ لم يكن المغنون وحدهم الذين يغنون به، بل كان أفراد الشعب من  
ملاّحين وغيرهم يتغنون فيه، مما يدل على أنه كان له صدى عميق في نفوس  
الطبقة العامة التي لم تكن تعرف الترف ولا حياة الدعة واللهوتلك التي عاشها الأمراء  
العباسيون والأشراف الذين نعموا بملذات الحياة كما عاشها الشعراء الماجنون في  
نواصي بغداد. ولم يكن هذا الشعر الزاهد قريباً منها في معانيه فحسب، بل كان  
قريباً منها في ألفاظه، بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إنه كان من نفس أنماطها اليومية.  
ويتحول كثير منه إلى ما يشبه وعظ الوُعَاظ ممن كانوا يعظون الناس في المسجد  
الجامع، فيضعون الموت تحت أعينهم للعبرة والعظة<sup>(٣)</sup>، ولعل ذلك ما يجعل  
الاستفهام والأمر والتعجب يشيع في تلك الزهديات. على أن مسحة مهمة  
تعلوها هي مسحة الكتابة والبَرم بالحياة، وهي ليست مسحة إسلامية، فالإسلام  
لا يشوّه الحياة ولا يبغضها إلى الناس، بل يدعوهم إلى العمل الصالح، أما

(١) أغاني ١٠٣/٤ والديوان ص ٦٦ .

(٢) أغاني ١٠٤/٤ .

(٣) انظر القصيدة الطويلة التي يصف فيها

بالتفصيل مشهد الموت والنقل والدفن من  
ص ٢٩٣ إلى ٢٩٥ في الديوان .

أبو العتاهية فيصورها في سواد خائق ، وهو سواد جاءه فيما نظن من قراءته في المانوية واختلاطه بأصحابها ، إن لم يكن من اعتناقه لها ولكن على أساس فلسفته التي قدمناها من التوفيق بينها وبين الإسلام ، بحيث آمن بربه وأقر بالشواب والعقاب في الدار الآخرة ، كما يشهد بذلك كثير من أشعاره .

ومما لا ريب فيه أنه كان يكثر من قراءة المترجمات ، وخاصة في باب الحكيم والموت ، فقد قالوا إنه نظم في بعض مرثيه قول بعض الفلاسفة لما حضروا موت الإسكندر : « الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس » فقال في رثاء علي بن ثابت :

وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظُ منك حياً (١)

ومرت بنا مرثية أخرى له في علي ، وقد جعله تصويره لآلام الحياة والموت يُجيد في هذا الموضوع . وكان كثيراً ما ينقل حكم الأوائل من فرس وغير فرس إلى شعره ، ولعل ذلك ما أتاح له أن ينظم مزدوجته : « ذات الأمثال » التي امتدت إلى أربعة آلاف بيت . ويقول الجاحظ تعليقاً على قوله : « أسرع في نقص امرئ تمامه » : ذهب إلى كلام الأول : « كل ما أقام شخص ، وكل ما ازداد نقص ، ولو كان الناس يميهم الداء ، إذن لأعاشهم الدواء (٢) » .

وأظن أن فيما أسلفنا ما يدل في وضوح على صنعة أبي العتاهية ، وهي صنعة كانت تقوم على السهولة المفرطة في اختيار الألفاظ والعبارات ، حتى لتترب لغة الناس اليومية ، بل حتى ليصيبها أحياناً ضرب من الابتذال ، ومن أجل ذلك كان الأصمعي يقول : « شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والحزف والنوى (٣) » ويقول أبو الفرج إنه كثير الساقط المرذول (٤) على أننا نلاحظ أنه لم يدخل في شعره ألفاظاً أعجمية ، إنما هو القرب فقط من كلام العامة ، وكان يتخذ ذلك مذهباً في صنعة شعره ، حتى يكون أكثر تداولاً ،

(١) البيان والتبيين ٤٠/١ وانظر ٢٥٧/٣ (٣) أغاني ٤٠/٤ .

(٤) أغاني ٢/٤ .

(٢) البيان والتبيين ١٥٤/١ .

ومع ذلك لم يخرج عن الفصحى ، وظلت عنايته بالمعاني تحول بين شعره وبين السقوط . والذى لا شك فيه أنه بسَّط لغة الشعر لا في مجال اللهو والغزل والخمر كما صنع بشار أحياناً وأبو نواس غالباً ، بل أيضاً في مجال الزهد والمديح ، فحتى المديح لم يقف عائناً في سبيل هذا الأسلوب المبسط السهل ، إذ انفك عن كثير من تقاليدته القديمة من حيث مقدماته في وصف الصحراء والرحلة على النوق ، وكذلك من حيث لغته الضخمة الجزلة وما كان يشوبها من الغريب عند بشار وأضرابه . وأدته هذه السهولة وما يدمج فيها من تبسيط إلى اختيار الأوزان الخفيفة والحزوة يصوغ منها شعره ، بل لقد اندفع يجدد في الأوزان على نحو ما مر بنا في الفصل السابق مظهراً براعة فائقة .

## ٨

## ظهور مذهب التصنيع

كان ذوق التصنيع أو الزخرف والزينة يعمُّ في كثير من جوانب الحياة العباسية فقد كانت قصور الخلفاء والأمراء وكثير من القواد والوزراء والأشراف تكتظ بالستور والبُسط المعلقة على الحوائط والنوافذ متنافسة بألوانها الزاهية وما عليها من التصاوير المذهبة ، وكانت الحيطان والسقوف والأبواب تذهب وتفضض ، كما كانت الغرف والأبهاء تزدان بالأثاث النفيس والفرش الأنيقة . ويصف أحمد ابن حرب المعروف بأبي هفان مجلساً للأمين ، فيقول : إنه دعا الشعراء ، فدخلوا إليه في « إيوان ( بهو ) فائح فاسح يسافر فيه البصر ، جعل كالبيضة بياضاً ، ثم ذهبَ بالإبريز المخالف بينه بالللازورد ، ذى أبواب عظام ومصاريع غلاظ تتألأ فيها مسامير الذهب ، قد قمعت رءوسها بالجوهر النفيس ، وقد فرشَ بفرشٍ كأنها صبغ الدم ، منقش بتصاوير الذهب وتماثيل العقيان ، ونصَّد فيه العنبر والكافور وعجين المسك . . . والترايين<sup>(١)</sup> » ويصف آخر داراً للوائق فيقول :

(١) طبقات الشعراء ص ٢٠٩ .

«إنها كانت مُلبَّسةً بالحيطان بالوشى المنسوج بالذهب وإنه رآه يجلس على سرير مرصع بالجواهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، وإلى جانبه فريضة تغنيه وعليها مثل ثيابه<sup>(١)</sup>» .

وكانت دور كثير من الوزراء لا تقل عن دور الخلفاء أناة مثل دور البرامكة وبنى سهل ، وكذلك كانت دور الأمراء والأشراف والموظفين الكبار ممن كانت تُغدق عليهم الدولة . وعلى نحو ما تأفقوا في قصورهم وفرشهم تأفقوا في أطعمتهم ، فاحتفلوا بموائدهم ، ويعرض علينا الجاحظ في كتابه البخلاء أطرافاً من ما كلهم ومشاربهم ، كما يعرض علينا ذلك أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني ، وقد عرفوا آنية الصينى المنقوشة ، ومرّ بنا وصف أبي نواس لكأس مذهبة ، نُقش عليها منظرٌ صيد لكسرى وفوارسه . ولم يكن تأفقهم في ثيابهم أقل من تأفقهم في طعامهم وشرابهم ، وكان لكل طائفة زىٌّ ، فللقضاة زىٌّ ولأصحابهم زىٌّ وللشُّرط زىٌّ وللكتّاب زىٌّ<sup>(٢)</sup> . وبالغ النساء في أزيائهن وفي زينتهن ، وخاصة الجوارى من فارسيات وروميات ، فكن يصبغن شفاههن وخذودهن ويُسُدلن شعورهن على وجوههن بصور مختلفة ، تثير الإغراء والفتنة .

ولم يكن الشعراء يعيشون بعيداً عن هذا الجو من التصنيع والزخرف والزينة ، فقد كانوا ينادمون الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة ويمتثلون بالجوارى والإماء ، وانصبَّ في حجورهم كثير من الأموال التي جعلتهم يعيشون في ترف ونعيم بالغ ، بل يحققون كل ما يريدون من تصنيع وتنميق في حياتهم . وفي أخبارهم ما يدل على الأموال الطائلة التي كانوا يحصلون عليها ، يقول ابن رشيقي : «وأما المجذودون في التكسب بالشعر والحظوة عند الملوك فهم مسلم الخاسرات عن مائة ألف دينار ولم يترك وارثاً ، وقال فيه أبو العتاهية :

تعالى الله يا سلّمَ بنَ عمرو أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرجالِ

وكان صديقه جديداً ، فقال مسلم : وبلى جمع القناطير من الذهب ونسبني إلى ما ترون من الحرص . . ومروانُ بنُ أبي حفصة أعطى مائة ألف دينار غير

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١٦/٤ . (٢) البيان والتبيين ١١٤/٣ .

مرة . . وكان أبو نواس محظوظاً لا يدرى ما وصل إليه ، لكنه كان متلافاً سمحاً ، وكان يتساجل في الإنفاق هو وعباس بن الأحنف وصريع الغواني (مسلم بن الوليد) وكان البحرى مليئاً قد فاض كسبه ، وكان يركب في موكب من عبده<sup>(١)</sup> .

وعلى هذه الشاكلة توفرت الأموال لدى الشعراء ، وعاشوا في عالم مترف زاخر بالحلية والزينة ، يقول الجاحظ : « وكانت الشعراء تلبس الوشئ والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر » ويقول إنهم كانوا يتندرون على من يتزيى بزي الماضين<sup>(٢)</sup> ، ويقول صاحب الأغاني عن سلم الخامر : « كان يأتي باب المهدي على البرذون ( الفرس المطهم ) قيمته عشرة آلاف درهم ، والسرج واللجام المقذوزين ( المزينين ) ولباسه الخز والوشئ وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه<sup>(٣)</sup> . وكان غير سلم يصنع تصنيعه في حياته وثيابه وطيبه .

وأخذ هذا التصنيع والتنميق يتسرب من حياة الشعراء العامة إلى حياتهم الفنية الخاصة ، وهي حال طبيعية توجد دائماً في الصنائع حين يعمُ الترف ، فإذا هي تحول إلى زخارف دقيقة . وليس الشعر وحده الذي أخذ يسود فيه هذا التصنيع فقد كان يشيع في فن العمارة وبناء المساجد والقصور ، كما كان يشيع في التصوير الذي كان يُستخدَمُ زينة وزخرفاً للكتب والقصص ، فلا عجب أن ينتقل إلى الشعر والشعراء ، وأن ينمو مع الزمن حتى تصبح القصيدة كأنها واجهة لمسجد مزخرف بديع ، قد تألقت في وشئ مرصع كثير .

ولعل أقدم النصوص التي تشير إلى نشأة مذهب التصنيع وأول من اعتنقوه ما نجده عند الجاحظ إذ يقول : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتّابي وكنيته أبو عمرو ، وعلى أفضاه وحدّوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل

(١) العمدة لابن رشيقي (طبعة أمين هندية) (٢) البيان والتبيين ١١٥/٣ .  
(٣) أغاني (طبعة ساسي) ٧٨/٢١ .

ذلك من شعراء المولّد بن كنجو منصور النّمرىّ ومسلم بن الوليد الأنصارىّ وأشباههما ، وكان العتّابىّ يحدّث حذوّ بشار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرّمة (١) .

وتختلط فى هذا النص أسماء عربية هى العتّابىّ والنمرىّ وابن هرّمة بأسماء فارسية هى بشار ومسلم بن الوليد ، مما يجعلنا نتردد فى قبول الرأى القائل بأن البديع ، أو كما اقترحنا له اسم التصنيع نشأ فى الأدب العربى من طريق الفرس الذين يُعرّفون بميلهم إلى التعبير باللون (٢) . كل ما يمكن أن يقال أنهم أعانوا فى هذا المذهب ، ولكنهم لم يخترعوه ولم يبتكروه من تلقاء أنفسهم ، إنما هو مذهب عباسى تعاونت فيه طوائف الشعراء من العرب مع طوائف الشعراء من الفرس . على أن العباسيين كانوا يردونه إلى أصول عربية خالصة ، فالجالحظ يقرر فى بيانه أن « البديع أمر خاص بالعرب مقصور عليهم ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان (٣) » ويقول ابن المعتز فى مقدمة كتابه البديع : « قد قدّمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيّلهم ( أشبههم ) وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم ، فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه . ثم إن حبيب ابن أوس الطائى ( أباتمام ) من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وفرّع فيه وأكثر منه . . . وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يُستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ويزداد حظوة بين الكلام المرسل ، وقد كان بعض العلماء يشبه الطائى فى البديع بصالح بن عبد القدوس فى الأمثال ، ويقول لو أن صالحاً نثر أمثاله فى شعره وجعل بينها فصولاً من كلام لسبق أهل زمانه وغلب

(٢) البيان والتبيين ٥١/١ .

(٣) البيان والتبيين ٥١/١ .

(٤) النثر الفنى لزكى مبارك ٤٤/١ .

على مَدّة ميدانه . وهذا أُعدِلُ كَلامَ سمعته في هذا المعنى<sup>(١)</sup> . وبمضى ابن المعتز في كتابه ، فيستشهد لكل لون من ألوان البديع بأمثلة مما جاء عن العرب قبل العصر العباسي وظهوره ومما جاء في الذكر الحكيم وأحاديث النبي الكريم .

فالبديع لم ينشأ لأول مرة في العصر العباسي ، بل له مقدمات واضحة في الأدب العربي ، وقد رأينا أن نسمي هذا المذهب الذي كمل نضجه عند العباسيين باسم التصنيع ، لأن كلمة البديع معناها الطريف ولا تُعطى معنى الزخرف والزينة بخلاف كلمة التصنيع التي تدل بمعناها على التألق والتنسيق . وسرى عندما نتمتع في بحث هذا المذهب أنه لم يقف عند الألوان التي اصطُح عليها أصحاب البديع ، بل تعداها إلى ألوان أخرى استمدتها من الثقافة والفكر العباسي العميق وما وعى من الفلسفة .

ونعود إلى مناقشة الجاحظ وابن المعتز في نشأة المذهب ، أما الجاحظ فاتسع به وسلك فيه ابن هرمة وبشارا والعمري والعتابي ، وقال في بعض كلامه إن الراعي (معاصر الفرزدق) كثير البديع في شعره<sup>(٢)</sup> ، فهو ليس مذهبا عباسيا إنما هو مذهب قديم . وأكبر الظن أن مرجع ذلك عنده أنه كان يعنى بكلمة البديع التشبيهاً والاستعارات الطريفة .

وكان ابن المعتز أكثر دقة منه حين لاحظ أن البديع بمعناه الاصطلاحي المحدث إنما كثر عند بشار ومسلم وأبي نواس ، وهو يعود فيذكر أن أبا تمام أول من جعله وكده من صناعة الشعر وعمله . فالأولون لم الكثرة من ألوان هذا المذهب التي كانت تأتي في ندرة عند القدماء ، وأول من جعله مذهبا أبو تمام . وإذا أخذنا نستعرض آراء النقاد السابقين وجدناهم يلاحظون أن بشاراً زعيم المحدثين ، يقول صاحب الأغاني عنه : « ومحلّه في الشعر وتقدّمه طبقات المحدثين

(١) انظر كتاب البديع (نشر كراتشكوفسكي) (٢) البيان والتبيين ٥٦/٤ .

فيه بإجماع الرواة ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك<sup>(١)</sup>» ويسميه الحصري قائد المحدثين<sup>(٢)</sup>، ويقول ابن خَلَّاد الشاعر في شطر بيت له :  
(والآخرون يقودهم بشار<sup>(٣)</sup>) . وأوضحنا في غير هذا الموضوع قيادة بشار ورياسته للمحدثين ، ورجعناها إلى تجديدات واسعة في موضوعات الشعر مع موازنة دقيقة بين هذه التجديدات والعناصر التقليدية الموروثة ، وكان أول من ثبَّت أسلوب المولدين العباسيين الذي يعتمد على استنباط المعاني الدقيقة ، مستجداً من الثقافة الحديثة ، كما يعتمد على تبسيط الأسلوب ومرنته وسهولته ، وخاصة في شعر اللهو والغزل .

ولعلنا لا نبعد إذ قلنا إن بشاراً لم يفرغ للتصنيع في فنه والتنميق في شعره ، وإن كنا نلاحظ عنده خيوطاً منه بحكم ذوقه العباسي الذي كان يُعنى بالتأنق . ومعنى هذا أن من يريدون أن يجدوا عنده أمثلة للجناس والطباق وما إليهما من ألوان البديع لا يعدمون ذلك بل يلقونه كثيراً ، غير أنه لم يكن يرى أن يكون الشعر حُلِّيَّ بديعية ، ومن أجل ذلك سلكناه في جماعة الصانعين الذين لا يعدون في التكلف للبديع وزخارفه . وكان كثيراً ما يترك نفسه على سجيها ، ولذلك لاحظ القدماء أن له شعراً غشاً<sup>(٤)</sup> وأنه يأتي بالمهجين المتفاوت<sup>(٥)</sup> ، وأنه كثير التخليط في شعره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً<sup>(٦)</sup> . وإن كنا لا نغلو غلوهم ، إذ لا شك أنه أكبر شاعر نلقاه في مفتح هذا العصر ، وقد جدّد كثيراً في فنون الشعر و معانيه وأساليبه .

ومثَّلُ أبي نواس مثلُ بشار نجد عنده ضروراً مختلفاً من التجديد ، وقد استطاع أن يصل بفن الحميرية إلى الذروة ، ومسرَّناً كثيراً في أسلوب المولدين الجديد وخاصة في باب الغزل والحرر والمجون ، وجاء بكثير من المعاني والصور الطريفة ، وعسَى بزخرف البديع في بعض شعره ، ولكنه لم يتخذ مذهباً يطبقه

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٥/٣ . (٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٧٩/٣ .

(٢) زهر الآداب على هامش المقد ٢١/٢ . (٥) أغاني ١٦٢/٣ .

(٣) التيمة للثعالبي (طبعة بيروت) ٣٨٨/٣ . (٦) أغاني ١٥٥/٣ .

على أبياته بيتاً بيتاً ، إذ كان كثيراً ما ينظم الشعر عفو الخاطر ولذلك تفاوت شعره قوة وضعفاً ونفاسةً وغثاثة : وهو بذلك كله كصاحبه بشار من ذوق الصانعين الذين لا يُجهدون أنفسهم في صنع الشعر وتحقيق كل ما يمكن من زخارف البديع .

ونحن بذلك نتفق مع ابن المعتز في أن أبا نواس وبشاراً جميعاً لم يتخذنا التصنيع والبديع مذهباً ، ونطلق هذا الحكم معه على شعراء القرن الثاني من أمثال النمرى والعتّابى ، فالبديع أو التصنيع عندهم جميعاً لم يكن مذهباً يعيشون فيه . غير أننا نستثنى مسلم بن الوليد ، مخالفين في ذلك ابن المعتز حين نظمه مع بشار وأبي نواس ، فهو أول من عاش لهذا المذهب ينمّيه ، وتناوله منه أبوتمام فيبلغ به الغاية . ولسنا أول من يقول ذلك فقد سبقنا كثيرٌ من النقاد القدماء إليه ، يقول ابن قتيبة : « هو أول من أَلطف في المعاني ورقق في القول وعليه يعوّل الطائي في ذلك <sup>(١)</sup> » ويقول أبو الفرج الأصبهاني : « وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، أشهرهم فيه أبو تمام الطائي » وينقل عن القاسم بن مهرويه قوله : أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا الذي سماه الناس البديع <sup>(٢)</sup> ، ويقول ابن رشيقي : « هو أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة ( البديع ) وأكثر منها ، ولم يكن في الأشعار المحدثّة قبل صريع الغواني إلا النبتة اليسيرة <sup>(٣)</sup> » . ويردّد صاحب معاهد التنصيص ما قاله أبو الفرج فيقول : « هو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس بالبديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، أشهرهم أبو تمام الطائي <sup>(٤)</sup> » .

فسلم هو صاحب هذا المذهب الجديد من التصنيع وهو الذي اقترح له اسمه البديع . على أن اعتناقه له لا يعنى أنه قضى على المذهب القديم مذهب

(١) الشعر والشعراء ص ٥٢٨ .

(٢) المعتمد ٨٥/١ .

(٣) المعاهد التنصيص ٢٠/١ .

(٤) انظر ترجمة مسلم بن الوليد في الأغاني الملحقّة بديوانه (نشر سمي الدهان - طبع

الصنعة ، فقد مضى الشعراء في القرن الثالث يقفون في صفين متقابلين ، منهم من يفهم الشعر على أنه تصنيع وزخرف وتنميق مثل أبي تمام وابن المعتز ، ومنهم من لا يُبْعد في فهمه كل هذا البعد ، مثل البحرى وابن الرومي . وإن كنا نلاحظ عندهما وعند أمثالهما من أصحاب مذهب الصنعة في القرن الثالث أنهم كانوا يستخدمون زخارف التصنيع في صورة أقوى وأوضح منها عند أسلافهم في القرن الثاني ، ومن ثم أخذ مذهبهم في التعقد . ولعل في ذلك ما يجعلنا نؤمن بأن إيجاد الحواجز والفوارق المطلقة بين المذاهب الفنية أمر عسير ، إذ ما تزال تتداخل وتتشابك على هيآت مختلفة ، وهذا شيء طبيعي فإن الشعراء حينئذ كانوا يلتقون كثيراً في مجالس الخلفاء والوزراء والنوادي الأدبية العامة ، وكانوا دائماً يعلقون على ما يسمعون من شعر باستحساناتهم ، وبذلك تبادلوا التأثير بعضهم ببعض ، ونسوق لذلك مثلاً : نادى القراطيسي الذي مرت الإشارة إليه « وكان مألفاً للشعراء ، فكان أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم وطبقتهم يقصدون منزله ، ويجتمعون عنده ويقصفون ويدعولم القيان وغيرهن من الغلمان<sup>(١)</sup> » ولا تخلو ترجمة شاعر عباسي في الأغاني من وصف هذه الاجتماعات وما كان يحدث فيها بين الشعراء من مطارحات ونوادير أدبية ، وكل منهم يسأل صاحبه عن أجود شعره .

وعلى شاكلة اجتماع مسلم بأبي نواس وأبي العتاهية ظل أصحاب التصنيع والصنعة يجتمعون في بغداد ، وهياً هذا الاجتماع اشئء من التداخل بين المذاهبين العاملين في حرفة الشعر حينئذ ، وأصبحنا نجد عند الصانعين محسنات المصنِّعين وزخارفهم ، ولكنهم لا يستخدمونها مذهباً ، بل تسقط في نماذجهم وقصائدهم من حين إلى حين . وهذا هو فرق ما بين العاملين والمذاهبين ، يوجد اختلاط ، ولكن لا يوجد اتحاد ، ويوجد عند الصانعين حليات التصنيع من حين إلى حين ولكن لا يوجد استمرار التطبيق .

## التصنيع في شعر مسلم ونماذجه

وُلد مسلم بن الوليد في الكوفة حرًا إلى سنة ١٤٠ للهجرة ، وكان أبوه من موالى الأنصار ، إذ كان مولى لأسعد بن زرارة الخزرجي<sup>(١)</sup> ، وأغلب الظن أنه كان فارسياً ، ويقال إنه كان حائكاً . وعنى على ما يظهر بتربية أبنائه وتوجيههم إلى حلقات الدرس والأدب في بلدتهم ، ونبغ له ابنان هما سليمان ومسلم ، ويظهر أن سليمان كان أكبرهما وكان مكفوفاً ، ويقال إنه كان يلزم بشار بن برد ، ولذلك اتهم بالزندقة<sup>(٢)</sup> . وزراه هو وأخاه في بغداد لعهد الرشيد ، بطرقان أبواب البرامكة وكبار رجال الدولة وقادتها العظام من مثل يزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد<sup>(٣)</sup> ، فكانوا يبرؤنهما ويجزلون لهما في العطاء . ولم يُعرف مسلم بزندقة كما عُرف أخوه ، وإنما عُرف بإقباله على اللهو والطرب ، فكان يجتمع بأبي نواس وطبقته مثل أبي الشَّيْص<sup>(٤)</sup> ، ويقبل معهم على الخمر والمجون ، ويقال إنه كان إذا كَسب مالا جمع أصحابه في بيته يأكل معهم ويشرب ، حتى إذا لم يبق من كسبه سرى قوت شهرٍ ظهر في الناس . واختياره منزله للهو وطربه يدل على أنه كان فيه شيء من التوفر ، وهو على كل حال لم يهبط إلى عبث أبي نواس والحسين بن الضحاك الخليع وأضرابهما ، فقد كان يعرف لنفسه حقها من الكرامة ، وكان يحتفظ بغير قليل من الوقار . وكان فيه فضل من حياء . ولعل ذلك ما صرفه أول الأمر عن الخلفاء ، فكان يمدح مَنْ دونهم ولا يطمع في مدحهم . وما زال هذا شأنه حتى اشتهر في الأوساط الأدبية ومدح منصور بن يزيد الحميري ، فوصل بينه وبين هرون الرشيد ، وأصبح من شعرائه ، ويقال إنه

الأدياء لياقوت ( طبعة مصر ) ٢٥٥ / ١١ .

(٣) الديوان ص ٣٦٥ .

(٤) طبقات الشعراء ص ٧٢ ، ٢٠٧ .

(١) انظر ترجمته في الأغاني الملحقة بديوانه

(نشر سامي الدهان) ص ٣٦٤ وما بعدها

وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٩٦ / ١٣ .

(٢) الحيوان للجاحظ ١٩٥ / ٤ ومعجم

لما أنشده لاميته المشهورة فيه وبلغ قوله :

هل العيشُ إلا أن تروحَ مع الصَّبَا وتغدو صريعَ الكأس والأعين السُّجُل  
قال له : أنت صريع الغواني ، فسمي بذلك حتى صار لا يُعرَف إلا به (١) .

وتدلنا أخباره على أن الرشيد كان يعجب به ، وفي رأينا أن مصدر هذا الإعجاب لم يكن مديحه له فحسب ، فقد وجدته يشيد بقائده يزيد بن مَرْزُود الشيباني حين قضى على ثورة الخوارج في عهده وكان ذلك سنة تسع وسبعين ومائة ، وبلغ من هذه الإشادة كل مبلغ ، حتى جعله عز الخلافة :

إذا الخلافة عُدتْ كنت أنت لها عَزْراً وكان بنو العباس حُكَّاماً (٢)

بل جعله سداد الملك العباسي وصمام أمانه في حروب الخوارج وعلى حافات الثغور ، يقول (٣) :

لولا يزيد لأضحى الملك مطرَحاً أو مائل السَّمَك أو مُسْتَرْخَى الطَّوَل (٤)  
نابُ الإمام الذي يفتُرُ عنه إذا ما افترَّت الحرب عن أنيابها العُصَل (٥)  
وصادف ذلك هوى في نفس الرشيد ، لأنه كان قد أخذ يفكر - على ما يظهر -

في إعلاء كفة العرب في شئون الحكم ومقاليدهم ، وكان يرى الشعراء مزدهمين على أبواب يحيى البرمكي وولديه الفضل وجعفر وغيرهم من الفرس ، فكان ذلك يقض مضجعه ، ويتساءل بينه وبين نفسه أين العرب وكيف أرفع منهم أمام هؤلاء الذين استبدوا في وملا لهم الشعراء طرقات بغداد ثناء . فلما نظم مسلم مدائحه في يزيد تنفّس عن نفسه وجلها روحاً على قلبه . ويروى الرواة أنه أرسل يوماً إلى يزيد ، فأتاه لابساً سلاحه مستعداً لأمر إن أرادته ، فلما رآه ضحك وقال له : يا يزيد أخبرني من الذي يقول فيك :

تراه في الأمن في درِعٍ مضاعفة لا يأمنُ الدهرُ أن يُدعى على عَجَلٍ  
لله من هاشمٍ في أرضه جبلٌ وأنت وابنك رُكُنَا ذلك الجبَل

(١) طبقات الشعراء ص ٢٣٥ .  
(٢) الديوان ص ٦٧ .  
(٣) الديوان ص ٧ .  
(٤) مطرَحاً : مخذولاً . وقد شبه في الشطر  
الثاني الملك بخيمة لولا يزيد لما عودها واسترخت حبالها .  
(٥) يفتُرُ عنه هنا : يكثر ، والعصل : المعوجة ، وهي أشد بأساً من المستقيمة .

فقال له : لا أعرفه ، فعجب الرشيد ، وقال له : سوءة لك من سيد قوم  
يُمدحُ بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين ، فرأوه ، ووصل  
قائله ، وهو مسلم بن الوليد . وانصرف يزيد فدعا به ووصّله<sup>(١)</sup> ، وتوالت عليه  
عطاياه ، ووالى مسلم مدائحَه الرائعة فيه . وجذبه غير واحد من رجالات العرب  
فكان يقلدهم مدائحَه ، مثل داود بن يزيد المهلبي وزيد بن مسلم الحنفي والحسن  
ابن عمران الطائي ومنصور بن يزيد الحميري وابنه محمد . وظل وقيماً للبرامكة ،  
ولكن يزيد بن مزيد غلب عليهم كما غلب معه هؤلاء العرب الخالص . ونراه  
يمدح الأمين ، حتى إذا تحوّلت أزمّة الخلافة إلى أخيه المأمون لزم الفضل بن  
سهل وزيره ، وكانت قد تقدمت به السنُّ ، فعطف عليه الفضل وولاه بريد  
جربان وقيل مظالمها ، ولم يلبث هناك أن لبى نداء ربه سنة ثمان ومائتين .

وأكثر شعر مسلم في مديح من سميناهم وله غزليات وخمريات قليلة ،  
وهاجى ابن قنبر الشاعر ، ولكن لا على طريقة الهجاء عند حماد عجرد  
وبشار ، ولكن على طريقة الشعراء الأمويين ، وما زال به حتى أفحمه وكفَّ  
عن مناقضته<sup>(٢)</sup> . ويقال إنه هجا يزيد بن مزيد ، وربما ندّد ذلك منه حين تأخر عن  
عطايه ، ووصل ذلك إلى مسامع الرشيد فأحضره ردهده وقال له : « لئن بلغني  
أنك هجرت لأنزعن لسانك من فكيك » فأنهى ولم يعد ، ونعم بعطاياه وعطايا  
الخليفة معاً ، حتى إذا توفى رثاه رثاء حاراً .

ومسلم في شعره يعتمد اعتماداً شديداً على الإطار التقليدي وما يرتبط به من  
جزالة الأسلوب ومتانته ورسائنه ونصاعته وقوته ، حتى في غزله وخمرياته ، فإنه  
لا يهبط أبداً على نحو ما يهبط أبو نواس وأبو العتاهية إلى الأساليب اليومية ،  
وحقاً مربّنا في الفصل السابق أن له قصيدتين من وزن مولد ، ولعله جارى فيهما  
أصحاب مذهب الصنعة وتجديداتهم في البحور الشعرية ، وهما على كل حال شذوذ  
في عمله ، أما بعدهما فشعره يغلب أن يكون من الأوزان الطويلة حتى تتلاءم

(١) انظر ترجمته في الأغاني الملحقه بالديوان (٢) انظر الأغاني (طبعة الساسي) ١٣/٨-١١  
ص ٣٦٧ . وراجع ترجمته في الملحقه بالديوان .

مع ما يريد من جرس قوي ، ومن ضخامة البناء في اللفظ والتعبير . وهو من هذه الناحية يُعَدُّ في طبيعة من دفعوا الشعراء العباسيين إلى التمسك بالأسلوب الجزل المصقول ، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه فعلاً أول من دفع الشعراء في هذا الاتجاه ، فقد كان الشعر العربي عند أبي نواس وأبي العتاهية على وشك أن يزايل هذا الأسلوب إلى الأسلوب الشعبي اليومي ، فأمسك به مسلم دون هذه الغاية وردّه في قوة إلى جزالته القديمة وجعلها مقوماً أساسياً من مقوماته ، بل جعلها المقوم الأساسي الأول بين هذه المقومات . وعمّ هذا الذوق لا عند خلفائه من أصحاب مذهب التصنيع مثل أبي تمام بل أيضاً عند أصحاب مذهب الصناعة وكبارهم خاصة ، مثل البحرى . ولا تظن أن هذا الأسلوب الجزل القوي لم يكن يكلف مسلماً مشقة ، بل لقد كان يكلفه عناء أى عناء في اصطفاء اللفظ والملازمة بين اللفظة واللفظة في الجرس ، حتى يتم له ما يريد من ضخامة البناء وروعته . وهو بناء يقام على أعمدة ، هي الأبيات ، وكل بيت كسابقه في الضبط والإحكام ، وكل قصيدة ، بل كل مقطوعة كشيئها في هذا النمط الذي لا يتفاوت نسيجه ، ومن أجل ذلك يختلف اختلافاً بيناً من أبي نواس وأبي العتاهية ، فشعرهما فيه القوى والضعيف ، وفيه المتين والمهلل ، لسبب بسيط وهو أنهما من ذوق أصحاب الصناعة ، لا يُبْعِدَان حين النظم في التكلف ، بل كثيراً ما يقولان الشعر بديهية وارتجالاً في غير تروّ ، أما مسلم فصاحب رويّة ، لا يرتجل ولا يقول الشعر عفواً ، فالشعر عنده صناعة مجهدّة ، لا بد فيها من التريث والتهمل ، ولا بد فيها من الصقل والتجويد ، ولعل ذلك ما جعل ديوانه صغيراً بالقياس إلى دواوين معاصريه من أمثال بشار وأبي نواس .

وهذا البناء الضخم عنده لا تكفي ضخامته وحدها في رأيه ، فلا بد أن يضاف إليه الزخرف الجديد الذي كان يأتي على قلة في الشعر القديم ، وأكثر منه بشار وخلفاؤه ، ولكنهم لم يتخذوه مذهباً ، أما مسلم فقد رأى أن يطبّقه على شعره ، وقرأ له القصيدة الأولى في ديوانه وهي في مديح يزيد بن مزيد ، فسأراه يستهل غزلها على هذا النحو :

أَجْرَرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَمَزِلٍ      وَشَمَّرْتُ هِمِّمَ الْعُدَّةِ آلَ فِي الْعَدَلِ (١)  
 هَاجَ الْبِكَاءَ عَلَى الْعَيْنِ الطَّمُوحِ هَوَى      مَفْرَقٌ بَيْنَ تَوْدِيعٍ وَمُحْتَمَلٍ (٢)  
 كَيْفَ السَّلْوُ لِقَلْبٍ رَاحٍ مُحْتَبَلًا      يَهْدِي بِصَاحِبِ قَلْبٍ غَيْرِ مُحْتَبَلٍ

والجهد واضح في الأبيات سواء من حيث اختيار الألفاظ أو من حيث إضافة زخارف الجناس والطباق فهو يجانس بين العُدَّةِ آلَ والعُدل . وهو يطابق بين المُحْتَبَلِ وغير المُحْتَبَلِ . وفي البيت الثاني طباق دقيق بين الهوى المقسم بين التوديع والاحتمال أو الارتحال . فإن التوديع يتضمن الإقامة القليلة ، وهي عكس الارتحال . ونمضى معه إلى المديح ففراه كله على هذا الطراز :

بَغَشَّى الْوَعَى وَشَهَابُ الْمَوْتِ فِي يَدِهِ      يرمى الفوارسَ والأبطال بالشُّعْلِ (٣)  
 يَفْتَرُّ عِنْدَ اقْتِرَارِ الْحَرْبِ مَبْتَسِمًا      إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهُ الْفَارِسِ الْبَطْلِ  
 مَوْفٍ عَلَى مَهَجٍ ، فِي يَوْمِ ذِي رَهَجٍ      كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ (٤)  
 يَنَالُ بِالرَّفْقِ مَا يَعْجِيئًا الرِّجَالُ بِهِ      كَالْمَوْتِ مَسْتَعَجِلًا يَأْتِي عَلَى مَهَلٍ  
 لَا يَرْحَلُ النَّاسُ إِلَّا نَحْوَ حُجْرَتِهِ      كَالْبَيْتِ يُفْضَى إِلَيْهِ مُلْتَمَى السُّبُلِ  
 يَتَّقِرِي الْمَنِيَّةَ أَرْوَاحَ الْكُمَاةِ كَمَا      يَتَّقِرِي الضِّيُوفَ شَحُومَ الْكُومِ وَالْبُزُلِ (٥)  
 يَكْسُو السِّيُوفَ دِمَاءَ النَّاكِثِينَ بِهِ      وَيَجْعَلُ الْهَامَ تَبِجَانِ الْقَسْنَا الذُّبُلِ (٦)  
 قَدْ عَزَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقَنَ بِهَا      فَهِنَّ يَتَّبِعُنَّهُ فِي كُلِّ مَرْتَحَلٍ

وأنت تراه يعتمد على النحت وقوة البناء ، كما يعتمد على الزخرف والتصنيع ، حتى يصنع هذا الديقاج أو النسيج المتين بالألوان والأطراف . وانظر في البيت الأول فإنك تراه يستعير الشهاب للسيف ، ويجعله شهاب الموت ، وهو شهاب تسقط منه على فوارس الأعداء الشعل فتحرقهم حرقاً لا يبق ولا يذر . وحاول

(٥) يقري : يطعم ، الكوم من الإبل : ضخمة الأنسة ، وأحدتها كوماه ، والبزل : جمع بازل وهو الممن الذي أكل تسعة أعوام .  
 (٦) الهام : الروس ، الذبل : الرقيقة القتالة ، والكماة : جمع كمي وهو الشجاع .

(١) أجرت حبلى خليع : من قول العرب : أجرت البعير جله إذا تركته يصنع ما يشاء .  
 (٢) محتمل : ارتحال ، من احتمل القوم أى ارتحلوا .  
 (٣) الوعى : الحرب .  
 (٤) الرجح : غبار الحرب .

في البيت الثاني أن يأتي بلون آخر هو لون الجناس ، فجانس بين يفتّر وافتّر ، وأدخل في ذلك ضرباً من المشاكلة، فيزيد يفتّر مبتسماً وفتّر الحرب عن أنيابها القاتلة الغلاظ. ولم يكتف بذلك في البيت، فقد أضاف فيه لوناً جديداً هو لون الطباق ، فطابق بين تغير الوجه وعبوسه وابتسام يزيد ، وكل ذلك ليحقق لمؤذجه ما يستطيع من زخارف الفن الجديدة . أما البيت الثالث فكان يعجب به إعجاباً شديداً ، لتألق لون الجناس فيه بين مُهَجِّجٍ وَرَهَجِّجٍ ، ثم بين أجل وأمل ، ويروى أنه اجتمع بأبي العتاهية فقال له : « والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

الحمدُ والنعمةُ لكُ      والملكُ لا شريكُ لكُ  
لَبَّيْكَ إن الملكُ لكُ

لقلت في اليوم عشرة آلاف بيت ، ولكني أقول :

موفٍ على مُهَجِّجٍ ، في يوم ذى رَهَجِّجٍ      كأنه أجل يسعى إلى أملٍ (١) »

فهو يحس إحساساً دقيقاً بأنه يتناول حرفته بطريقة أخرى ليست هي طريقة الصانعين من أمثال أبي العتاهية ، إنما هي طريقة المصنّعين التي ابتدأها والتي تجعل الشعر نحتاً وصمتلاً وزخرفة وتسميةً . وانتقل مع مسلم إلى بيته الرابع ففرى فيه طباقاً واضحاً بين الاستعجال والمهل وطباقاً دقيقاً بين النَيْلِ أو الأخذ بالرفق والأخذ مع الإعياء . ويصوغ في البيت الخامس صياغة جديدة بيت زهير في مديح هَرَمِ بن سنان (٢) :

قد جعل المبتغون الخيرَ في هَرَمٍ      والسائلون إلى أبوابه طُرُقاً

ويستمر فيتحدث عن قيرى يزيد وضيافته وكرمه . ويخرج إلى المشاكلة . فيزيد له ضربان من القيرى : ضرب في السلم كقيرى الأجواد ، وضرب آخر في الحرب ، إذ يقري الموت أرواح الشجعان . ونراه في البيت السابع يُطرف قارئه بصورة بارعة؛ إذ جعل يزيد يكسو السيف بدماء أعدائه ويتوجّ القنا والرماح برعوسهم . وينتهي مسلم أخيراً إلى فكرة عربية

(١) أغاني ( طبعة دار الكتب ) ٢٧/٤ . (٢) ديوان زهير ( طبعة دار الكتب ) ص ٤٩ .

قديمة طالما ردها الشعراء من عهد بشر بن أبي خازم والنابعة ، وهي فكرة الطير تتبع الممدوح في حِلِّه وترحاله لما تصيبه من جثث أعدائه ، ويجوز مسلم الفكرة هذا التحوير الطريف ، إذ يجعل الطير تتعود من صاحبه عادة تنق به فيها ، وهي لذلك ما تزال تتبعه وتلاحقه من موضع إلى موضع .

ولعلك لاحظت في أثناء قراءة أبياته السالفة دقة تفكيره ، وهي دقة كانت تفتح له أبواباً من المعاني الخفية ، التي تروع السامع بغرائبها وطرافتها من مثل قوله في الغزل (١) :

إن كنتِ تسقين غَيْرَ الراحِ فاسقيني      كأساً أُلذِّبُ بها من فيكِ تَشْفِينِي  
عيناكِ راحي ، وريحاني حديشك لي      ولونِ خَدَّيْكَ لونِ الوردِ يكفِينِي  
وقوله (٢) :

يا واشيياً حَسُنَتْ فينا إساءتُهُ      نجى حذارُكِ إنساني من الغرقِ (٣)  
وقوله في الخمر (٤) :

شَقَقْنَا لها في الدَّنِّ عيناً فأسبَلَتْ      كأسنة الحياتِ خافت من القَسَلِ (٥)  
وقوله في الساقِ (٦) :

يسقيك بالألحاظ كأسَ صَبَابَةٍ      ويُنْدِيرها من كَمِّه جِرِيالاً (٧)  
وقوله في المديحِ (٨) :

فإن أغشَ قوماً بعدهم أو أزرهمُ      فكالوحشِ يذنيها من الأتسِ الخُلِّ (٩)  
ويستمر مسلم في الديوان كله على هذا النمط ، فزخارف الفكر واللفظ ما تزال تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض لتكوّن هذا الخلق البديع ، وهو حلّ

يتداخل في بناء مہاسك ، يرفعه مسلم كما يرفع المثالون تماثيلهم ، فكل جانب يفتقر إلى جهود واسعة وإلى مثابرة وصبر . وحقاً هو صاحب هذا المذهب من

(٥) أسبلت : سالت .

(٦) الديوان ص ٢٠٤ .

(٧) الجريال : الخمر .

(٨) الديوان ص ٢٢٣ .

(٩) الخُل : الجذب .

(١) الديوان ص ٣٤٣ .

(٢) الديوان ص ٣٢٨ .

(٣) إنسان العين : سوادها .

(٤) طبقات الشعراء ص ٢٣٩ وانظر

الديوان ص ٣٨ .

التصنيع ، فقد عاش ينمّيه ، وحقّق لنفسه منه نماذج بديعة ، جعلت الشعراء من بعده تَهْوِيْ أفئدتهم إلى محاكاته وتقليده ، حتى أصحاب مذهب الصنعة أخذوا من بعض الوجوه يحاكونه ويقلدونه ، لأنه البِدْعُ الحديد الذي كان يروع أوساط الأدباء والمتقنين . وليس معنى ذلك أن مذهب الصنعة انتهى وانقضى ، فقد ظل المذهبان يتقابلان طوال القرن الثالث ، ومثّلَ البحترى وابن الرومي مذهب الصنعة ، غير أنهما عقّدا فيه وفي أدواته بما استمدا من تلك الزخارف وشيها الرائع . وأما مذهب التصنيع فمثّله أبو تمام وابن المعتز ، وقد عقّدا فيه وفي زخارفه تعقيداً شديداً ، يستوفى كل ما كان يحلم به مسلم من تأنيق وتنميق .